تدقّ الساعة تمامَ الغياب

آسيا رحاحلية

obeikan.com

obeikan.com

تدقّ الساعة تمامَ الغياب

آسيا رحاحلية

قصص قصيرة

obeikan.com

obeikan.com

إهداء

إلى الذين يقرأون

والذين يقرأون ويقرأون

وإلى الذين لا يقرأون

ليست أميةً دائمة..

فقد يقرأون يوما

النور احمد عليّ

obeikan.com

رواية سعيد المعتوه وظلّه

- لنبدأ من البداية أو من ما بعد البداية بقليل.

يتمتم سعيد المعتوه / هكذا كان أهل المدينة ينادونه / وهو يحفر الأرض المتربة عند قدميه بغصن شجيرة رفيع، يشكّل رموزاً ويمدّ خطوطاً متوازية ومتقاطعة بأشكال غريبة في التراب.. يبدو أنه التقط الغصن من الشارع في طريقه إلى مكانه المعتاد حيث يقضي الساعات الطوال، خاصة حين يكون الجو دافئا والشمس مشرقة، كما هذا الصباح من صباحات الربيع.

- البدايات ليست مهمّة حقا، كلها متشابهة، في زمان ما، ومكان ما، تشقّ سطح الوجود بذرة ما، وتنمو.. الأمر غير مثير، حدث ملايين المرات... ويحدث وسيحدث إلى أن ينقضي الوجود، الأهم هو الذي يأتي بعد ذلك

يعتدل سعيد المعتوه في جلسته... يسند ظهره جيّدا للجدار. تسقط أشعة الشمس مباشرة على جسده النحيل، ووجهه المتغضّن. تبدو لحيته المهملة الشّعثة كقطعة صوفٍ اجتثّت من ذيل معزاة.

كان على محيّاه ظلّ ابتسامة ساخرة... تناقض لمحة الجدّية الممدّدة فوق جبهته.

- ركّز معي. لنفترض بأننا مثلا، أنت وأنا نقرأ رواية هذا الكائن الغريب الذي هو أنا. أليست الحياة رواية؟ أليس

كل واحد منا رواية مصغّرة في رواية ضخمة هي الحياة؟ حسنا. لنفترض بأننا نقرّر إعادة كتابة روايتنا من جديد... من نقطة فيها، من الصفحة الثلاثين مثلا أو الخمسين. سنجعل لها نهاية مختلفة ومثيرة... دعنا نعتبرها تسلية لي ولك، في هذه الصبيحة المشمسة المملّة... لنقل أنها نوع من قتل الوقت، عوض الجلوس أمام التلفاز أو التسكّع في ممرات المدينة أو التفكير في أمور لا جدوى من التفكير فيها مثل: ماهية الحياة وحقيقة الموت .ألست مثلي تفكر أحيانا في جدلية الوجود والفناء؟

- أنا أفكر فيما تفكر فيه أنت... ألستُ ظلّك؟

- نعم... ظلّي، ولكني رجلٌ متفهّمٌ، واسع الرؤية... يمكنك أن تتحرّر مني، وأن تفكّر كما تشاء وفيما تشاء.. أمنحك حرية التفكير ولو أنّي لا أقدر أن أمنحك حرية الحركة.

- أخشى بأنني تعوّدت أن أكون ظلاًّ، ولم تعد حريتي تعني لي الكثير خارج إطار حريّتك.. ثم ما جدوى التفكير لمسمارٍ ثابتٍ في خشبة ؟

انس أنك ظلّي وشاركني الكتابة.. لا يهم إن اختلفنا وأعدك.. جميع حقوقك ككاتب ستكون محفوظة وسيكون لك نصيبٌ من الجائزة... اتّفقنا؟ اسمك أيضا سيظهر على الغلاف ..تخيّل معي

openkan.com

الغلاف الأنيق... والكتابة بخط جميل كبير: رواية سعيد وظلّه... أليس الأمر رائعا ومثيرا للحماس؟

ـ حسنا.. لنبدأ، لكنك سبق وأن قلت إنّ البدايات ليست مهمة بقدر النهايات.. هل معنى هذا إنّه يمكنني الحلم بنهاية مختلفة حتى ولو بدأتُ ظلا ؟

ـ نعم... سنكتب روايتنا دون اعتبار البدايات المألوفة، ولن نأخذ بالرأي القائل بضرورة تلاؤم البدايات مع النهايات.لا أذكر أين قرأت هذا. ذلك لا يحدث. هي لا تتلاءم دائما. هناك من يبدأ على اليابسة وينتهي في البحر، ومن يبدأ في القمة وينتهي في مستنقع، وهناك من يبدأ ولا ينتهي أو ينتهي قبل أن يبدأ! تعتقد بأنّي أهذي؟ لا عليك. ركّز معي ..لنترك ما قبل البداية وما بعد النهاية للقرّاء.. لخيالهم لا يجب أن نفسّر كل شيء. على القرّاء أن يستعملوا مخيلاتهم وذكاءهم.

ـ قرّاء؟!

- طبعا.. سيكون لروايتنا قرّاء كثر، مميّزون، سيكونون من النخبة. سترشّح روايتنا لجوائز محلية وعالمية. وقد تفوز بالبوكر العربية، من يدري.

ـ بوكر؟؟

ـ نعم.

ـ تقصد «أبو كَرْ»؟

ـ لا ... لا ... بوكر ... بووووكر .. مسابقة عربية ولكنها ليست عربية... لها قائمة قصيرة وأخرى طويلة.

ـ عربية وليست عربية، طويلة وقصيرة؟! بصراحة لا أفهمك... لمَ لا تذهب وتجلس في الظل، يبدو أنّ الشمس أتلفت عصباً في دماغك.

ـ لو جلستُ في الظلّ سأكون بمفردي وتهرب أنت منّي كما كلّ مرّة.. لماذا لا نكون معا دائما في الشمس وفي الظل؟ دعك من هذا... أنا أصرّ بأن تشاركني كتابة هذه الرواية... سيكون لها شأن كبير... ولكن يشغلني أمر مهم... هل ننهي روايتنا بموت البطل؟

ـ الذي هو أنت يا سعيد؟

ـ نعم.. ألا تراها فكرة جيّدة؟

ـ لا أعتقد... سيصاب القراء بخيبة أمل... الأبطال لا يجب أن يموتوا... عليهم أن يبقوا أحياء لكي ينقذوا العالم من الخراب والشّرور... سمعتك تقول هذا ذات يوم.

ـ غيّرتُ رأيي... بالعكس... لا يموت سوى الأبطال في عالم الجبناء... لذلك الشرور لا تنتهي.. لا تتغابى يا هذا!

ـ هناك مشكلة... لو قتلتَ البطل، أقصد قتلتَ نفسك؛ فسأموت أنا أيضا، ولن أحقّق حلمي بأن أتحوّل من ظلّ إلى إنسان، كما فعل ظل هانز اندرسون.

obeikan.com

ـ اصمت... لا تذكّرني بذلك الظل من فضلك، ولا تقارن نفسك به... أنت تعلم إنه تسبّب في موت صاحبه بعد أن أخذ مكانه... أنت لن تصبح أنا، لن تفعل بي ذلك صحيح؟ وأنا لن أكون أنت... ثم... ثم... أتوقّع بأنّك ستعيش بعدي لسنوات عديدة، وستحقق حلمك. الآن... ركّز معي لنكتب الرواية أين أنت؟ هل غادرت؟

كانت غيوم خفيفة بلون رمادي فاتح قد غطّت السماء فجأة.

وبدأ يتساقط المطر.. مطرٌ ربيعيٌ منعش.

تحت المطر سعيد المعتوه يهرول جيئة وذهابا وهو يتمتم:

ـ لم ننه روايتنا بعد... بل لم نبدأها... أين أنت؟ أين أنت؟

ومن طيات قميصه الرثّ انفلتت ورقة جريدة صفراء تكفّلت نسمة الربيع بحملها إلى كومة نفايات مركونة في إحدى الزوايا..

على الورقة التي بدأ البلل يفسّخ حروفها عنوانٌ بخط عريض:

«عبقري الفيزياء... سعيد أحمد الناجي... من الذرّة إلى الإبداع الأدبي»

obeikan.com

نزفٌ منفرد

بخار النفاق يسبق الكلمات.. الملامح يغشاها ضباب الكذب، والمصلحة الشخصية.

عبارات مصطنعة متبادلة بين الحضور بنفس الكثافة من الزيف والتملّق.

لم أستطع التركيز فيما كنّ يثرثرن به.

استحضرتك وشردت فيك.

هكذا دائما... كلما تضعني الظروف، ظروف عملي، في بؤرة للنفاق أجدُني أحنّ للقائك والاستفراد بك تفضحني رعشة صدري شوقا لاحتضانك، ولهفة خدي لملامسة وجهك، وحنين أناملي للمرور على زندك، وتوق أذني لانسياب أسرارِكَ فيها... أيها العظيم.

وحدك الصادق... الكل كاذبون ومنافقون.وحدك الواضح، الجميع مداهنون.وحدك الفصيح... كم في حديث البشر من نتوءات والتواءات وحفر!

انسحبت بهدوء من جمع المؤنث المسالم دون أن يلاحظني أحد.

شوقي إليك يسرقُني منّي دائما، يسرقني من كل ما حولي فأترك العالم خلفي وأجيئك.

obeikan.com

ليس من مجرم مثل الشوق، وأعرف بأنّ بك من الشوق بقدر ما بي أو أكثر تبوح لي بذلك أوّل نقرة بالريشة على شرايينك... حتى أني أحيانا أسمعك تناديني مثلما ناديتني أوّل مرّة... هل تذكر؟

صبيحة خريفية في المدينة الكبيرة الصاخبة وأبي، يمشي بي في شارع مزدحم باتّجاه طبيب العيون يمناي الهشّة الناعمة تمسك بيد أبي الخشنة القوية، بينما يسراي تحاول إحكام خماري فوق رأسي.

كنت معتادة على شعري مسافرا في الريح، يسابق خطواتي، يساير سنواتي الاثنتي عشر، لكن قرّر أبي وأخي الأكبر أن أتحجّب في تلك السن، فكان ذلك، وبدأت أتعلّم ترويض خطواتي وكلماتي ونظراتي، ترويض جموح طفولتي ليتوازن شعري المغطّى باحتشام مع حركاتي المتمرّدة وجسدي الطفولي المشاغب، وأفكاري البسيطة العفوية... لكني حين لمحتك، تقف خلف واجهة إحدى محلات بيع آلات الموسيقى، بعدما دلف أبي ليجلب الدواء من الصيدلية، مشيت إليك مأخوذة بسحرك كمن بها مسّ من جنون، ولم أفق إلا وصلابة زجاج الواجهة تصدم جبهتي... أبصرتك بكامل عنفوانك، وسمعتك تناديني بلغة نائية عشقتها روحي، كادت تندثر لاستطالة هجوعها في كنف الإهمال.

لم أتمالك .تسمرت قدمي في الأرض . لم أحفل بصرخات أبي، ونهره لي، بل لم أكن أسمعه إلا رجعاً بعيدا من كهوف بعيدة شدني صوتك قبل أن أسمعه، سحرني شدوك ولمّا يصل أذني بعد، داعب فرحي وحزني، انسكبت على مكمن عطش في روحي... أفاقت بي جنون عشق غابر فارقته منذ حقب وداع.

هل التقينا قبل الآن؟ في أزمان مندثرة من التاريخ؟

تمردت أصابعي على يد أبي، وقدمي بعناد تتشبث بالأرض. أطلقتُ شهقة إعجاب، وجريتُ نحوك ثانية.

وقفتُ مبهورة أتأمّلك... ووقعنا في العشق من أوّل نظرة.

ذلك اللقاء الأول بيننا كان بداية لبعث ولعي بك وبالموسيقى، لقاء أزاح عن ذاتي تراكم غبار الأزمان...

ذلك اللّمعان والجمال والعنفوان، تلك الأصالة والعراقة والأناقة والزخرفة..

ذلك السحر المنبعث منك فتنني بك.

وقف الجميع في وجه حبي لك. صادروا حقي في عشقك. قال أبي بأنّ الموسيقى مزمار الشيطان، وقال أخي بأنّ آخر ما يريد أن يسمعه مني هو أن أدرس الموسيقى..أخي! كم طرأت عليه تغييرات في تلك الفترة!.. أطلق اللحية وقطّب الجبين. لم

يعد يبتسم لي أو يلاعبني، الغريب أنّه وهو الذي لم يكن يفوّت الصلاة في المسجد، كنت أراه، حين أمر بدكّانه، يخلط الفاكهة الجيّدة بالفاسدة ثم يبيعها للزبائن!

والدتي كانت تردّد كلاما كثيرا عن واجبات البنت، وكيف عليها أن تتقن جميع مسائل البيت لكي تكون زوجة صالحة وربّة بيت ممتازة.

وكم كان صعبا على عقلي المتوثّب الحرون أن يعي كل ذلك كم كنت لا أفهم كيف يفكّرون، ولا أستوعب أبدا كيف تكون الموسيقى رجسا من عمل الشيطان وأنا أسمع الطبيعة تدوزن الوجود من حولي، كيف وفي الطبيعة لحن الحياة الخالد؟ كيف ولو أنّ الوجود يندثر ولا تبقى سوى نوتة واحدة لأعادت تشكيله؟

كنت أصرخ فيهم بصمتٍ مدوٍ.. أيها الطُرش، أيها العميان، صمّوا آذانكم إذا استطعتم عن زقزقة الطير، وهدير الموج، وهزيم الرعد وحفيف الأوراق وخرير الماء في الجداول.

لم يكن ممكنا أن أقتنع بأفكارهم، وكنت أحسّ بأنّي كلما اقتربت من الموسيقى؛ اقتربت أكثر من الشفافية والجمال، وكلما تغلغلت الموسيقى في وجداني؛ ارتقيت واقتربت من القداسة ومن الكمال.

لعلّ البشر قبل وجود اللغة كانوا يتواصلون بالموسيقى ...لعلها لغة أهل الجنة؟.

ولم تفلح أفكارهم المسمومة، ولا تهديداتهم بحرماني من الدراسة لو أبصروك في حضني أو لمحوا على شفتي ظل ترنيمة... لم تفلح في إبعادي عنك، ولم تستطع نظراتهم المشبعة بالاحتقار، المدجّجة بالتهديد والوعيد أن تجعلني أتوقّف عن عشقي لك، وولعي بالموسيقى، بذلك الرباط القوي، العروة المتينة بين الموسيقى والسماء، بين الموسيقى والنقاء، بينك يا رفيقي وبين المحبة والسلام والحرية.

ولأنّ المآسي لا تأتي فُرادى؛ فقد شاء القدر أن يخطف الموت أبي وأمي في وقت واحد حادث سيارة رهيب حرمني من أحبّ الناس إلى قلبي . أصبحت في العراء، وحيدة بلا سند.

كانت الصدمة عنيفة، وكان الألم أكبر من أن أتحمّله.استنفدت رصيدي من الدموع، ثم ركنت للانزواء والوحدة والصمت، وكنت مع مرور الأيام أتحدّث أقل، وأعزف أكثر .

أوحشني الغياب، وآنستني الموسيقى، قتلني الحزن، وأحيتني السكتة الموسيقية.

كنت قد انتقلت للعيش في بيت عمي / لم يزد ذلك زوجة أخي إلا سرورا / وحين سألني عمي ماذا أريد كهدية لتفوّقي في

اجتياز شهادة البكالوريا، قلت على الفور «أريد التخصص في الموسيقى».

ووافق عمي. كان واضحا أنّه أشفق عليّ... وأحبّ أن يرضيني، أن يعوّضني عن حزني وألمي لفقدان والديّ. كان عمي مختلفا بعض الشيء عن أبي، وعن رجال كثيرين في عائلتي الكبيرة... لم يرزق سوى بالذكور فكان يبدي اهتماما خاصا بي.

أعود إلى البيت.

أفتح باب غرفتي بهدوء مخافة أن يصلك غبار الثرثرة الهاطل من الشارع المجنون.

خشيت دائما أن تتأثّر حبالك الصوتية بصخب الحياة، وسخف البشر خلف الجدران.

أتقدّم نحوك بخفة فراشة وشوق عاشقة. أبتسم. أمسح بكفّي على ظهرك الأملس الناعم. احتضنك بحب وشوق... أجد في حضنك حضن أمي فتنهمر دموعي.

ولساعات أظل هناك

منفردة بعزفي. منفردة بنزفي.

obeikan.com

فصٌّ حُلْمٍ وذابْ

كان أول لقائي به بعد غيبة طويلة.

لم يترك لي فرصة لسؤاله أين كان ولا الذي حدث معه، فقد بادرني قائلا: «تعال معي سأريك أمرا لم يره أحدٌ بعد».. في واقع الأمر اعتدت غرابة أطواره منذ كنا معا في المدرسة الثانوية، وأصبح غيابه المفاجئ عن المدينة، ثم ظهوره المفاجئ أمرا مألوفا.

غيبته هذه المرة طالت أكثر / قيل أنّه دخل منتجع العباقرة!/

سرتُ خلفه دون أن أنبس بحرف.

اجتزنا الشارع المزدحم، وصراخ الباعة المتجوّلون يكاد يصم آذاننا، يتخلّله صوت نهيق وعواء وزئير وفحيح ونقيق. شققنا طريقنا بصعوبة وسط مجموعة من الأطفال يتقاذفون شيئا يشبه الكرة / لعله رأس رضيع لم ينبت علية الزغب / ويتبادلون من مفردات السباب ما لا يخطر على قلب بشر.

ولجنا آخر عمارة في حيّ قريب. أكياس القمامة «تزيّن» المدخل، فوقها أقام الذباب مهرجانا كبيرا. صعدنا السلالم. توقف عند باب شقة في الطابق الثاني فتوقفت. رسم في الفراغ بإبهامه شكلا / بدا لي كأنّه مفتاح أو لعلّه أشبه برمز الأنوثة أو الذكورة أو شيء من هذا القبيل / ففُتح الباب.

ضغط زرّ الضوء فأبان المكان عن رواق ضيّق .اتّجه إلى غرفة على يمين الرواق. سرير قديم وطاولة صغيرة تتوسط

الغرفة وقد عجّت بأوراق وكتب وصحف مصفرّة، وفي الركن حاسوب وحزمة من الأسلاك المتشابكة .

أخذ مكانه على الكرسي أمام الحاسوب. طلب مني أن أجلب لي من الغرفة المقابلة كرسيا.

«اجلس» قال وهو يتململ ويعتدل في جلسته كمن يستعد لحوار تلفزيوني «آن الأوان يا صديقي لأن أنقذ العالم من الشرّ والقبح والدمار والأحقاد والحروب . سأريك مشروع مدينتي الفاضلة».

عرفناه دائما، نحن أصدقاؤه أفلاطوني النزعة، مهووسا بالفلسفات القديمة، غارقا في قراءات اليوتوبيا، محلّقا في فضاءات الغرائبيات والأساطير. جلّ أحاديثه وأفكاره وحواراته وكتاباته كانت تدور حول جدلية الخير والشر، وإمكانية موت الرذيلة إلى الأبد وانتصار الفضيلة

يوما ما، سأحوّل الأرض إلى «كرةٍ أرضيةٍ فاضلة»... كان يقول... وكنا نعقّب على كلامه ساخرين «وقتها لن تسمّى أرضية... ستصبح» "بالون سماوي"! «لأنها ستصل إلى الكمال».

لم يكن أبدا يهتم بتعليقاتنا الساخرة، أو يلقي بالا لملاحظاتنا المحبطة.

أخذ من درج في طاولة الحاسوب ثلاثة أسلاك، ثبّتها فوق جبينه، شمالا ويمينا وفي وسط جبهته تماما، ثم وأوصل الأسلاك بجهاز الحاسوب. وكنت كلما أحاول فتح فمي لأقول شيئا يرمقني بنظرة... ويشير لي برأسه أن أحدّق في الشاشة.

وبينما يدّه على الفأرة... راح يحدّث نفسه وكأنّه يهذي:

- أن يمسك بزمام الحكم الفلاسفة أو المجانين ذاك أمر لا يعنيني... لا يعنيني من أفلاطون سوى فكرته السابعة: «جعل الأخوّة أساس الرابطة بين الأفراد». لو أنّ أفلاطون استشارني لنصحته؛ بأن يجعل هذه الرؤيا في مقدّمة أفكاره، لأنّه حين يعشّش معنى الأخوّة في قلوب الأفراد... تنتهي بعدها كل الأزمات والمشاحنات والصراعات، ويصبح العالم مسرحا للمحبة والخير والتكافل والجمال . لابد من حلّ لكل هذه الفوضى التي تطوّق العالم

ثم نظر نحوي وقد كست وجهه مسحة من الحماس والثقة.

- سوف ترى... وفي ظرفٍ وجيز سأجعل العلماني يؤاخي الإسلامي، واليساري يصادق اليميني، والقويّ يدافع عن الضعيف ويؤويه تحت جناحه، والغني يقتسم ثروته بالتساوي مع الفقير، ولن تكون هناك دوافع للصوصية أو الجرائم أو الحروب. وستلغى المحاكم، وتغلق السجون... ويُحال القضاة والمحامون على التقاعد، لكي ينشغلوا بزراعة الأزهار في حدائق منازلهم.

قررت أن أبدأ بحيّنا فمدينتنا، ثم أعمّم مشروعي ليشمل الوطن بأكمله ثم الدول المجاورة وهكذا إلى أن أتوصّل إلى كون فاضل. استعنت بـ (جوجل أرث) لبناء واقع جديد موازٍ للواقع، يستيقظ الناس يوماً، فيجدون أنفسهم كأنهم في حلم جميل، إلى أن يتأكدوا بأنه واقعهم الجديد .قد

Obeikan.com

يستطيعون زيارة واقعهم القديم وأماكنهم القديمة كمن يزور متاحف للآثار .هي مسألة وقت لا غير صدّقني.

كنت أستمع إليه وأنا أغالب ابتسامة ساخرة رقصت فوق شفتي، غير أنّي لم أجد بدًا من مجاراته

تمتمتُ:

-نعم... نعم... كل هذا جميل جدا.

- إنّه مشروع العمر. أعمل عليه عملا دءوبا منذ خمسة وعشرين عاماً. وقريباً سأنتهي من مدينتنا.

ثم أضاف:

- لاحظ معي... كل المشاهد التي صادفتها في يومي هذا منذ تركت البيت صباحا إلى الآن حمّلتها في دماغي... الآن سأجعلها تظهر على شاشة الحاسوب، ثم كل صورة أعدّل فيها وأقوم بالتغييرات والتحسينات اللازمة... حسب تصوّري للفضيلة والكمال والجمال، وبمجرد حفظ هذه التغييرات سيكون كل شيء مثاليا ورائعا... بمجرّد أن أضغط الزر وأغيّر الصورة هنا في الافتراضي؛ ستتغيّر الصورة هناك في الواقع الموازي، وغدا صباحا يا صديقي حين تقوم بجولة في الحيّ سيدهشك ما ستراه من مظاهر المودّة والسكينة والجمال والنقاء والأخلاق العالية

وأخذت الصور تتوالى على شاشة الحاسوب.

- أليس هذا مقهى العم رضوان؟

- من الغد سيصبح «مَكْهى العم رضوان»

- مكهى؟!

- نعم. كل المقاهي ستتحوّل إلى مَكَاهِي... مكتبة داخل مقهى... يمكنك أن تشرب قهوتك مجانا، بشرط أن تطالع سطورا من كتاب أو جريدة... على فكرة... من الغد لن تجد على صفحات الجرائد، ولا في القواميس، أيّة لفظة لها دلالة سلبية.. الفساد، الرشوة، العنف، الإجرام، الحقد، الكره، التعصّب، الضغينة، الخبث، الهم، الخصام، الحسد، الخيانة، الشتيمة.. سأمحو كل مبعث للشر والخطيئة والقبح. كل معنى لذلك سيختفي تماما وكأنّه لم يكن أبدا

- أنت تحلم. لن ينجح هذا، فالأشياء تعرف بأضدادها و«الضد يظهر حسنه الضد» كما تعرف.

- سفسطة فارغة. سوف أجعل الأشياء تُعرف بذواتها. هذا الصراع القائم بين الخير والشر... الرذيلة التي تعلو دائما على الفضيلة. كل ذلك سوف ينتهي على يدي. اعتمد على أيقونة مضغوط أزرعها في الذاكرة تحمل مخزون العالم من السلبيات... وكما تعرف فالحيوانات تتعلم بالتجربة والإنسان يتعلم بالخبرة.

- وكأنّك تجهل بأنّ الشر داخلي وليس خارجي. نحن البشر نحمل الشرور والرذائل في دواخلنا كقدر محتوم... هل ستغيّر الدواخل أيضا... التفكير والشعور والسلوك والطباع؟.

- نعم. إنّي أشتغل ليل نهار على برنامج رهيب سوف لن يبق في دواخلنا سوى على بذرة الخير .برنامج مضاد للشرور يعمل كجرس إنذار في الدماغ.

- مذهل حقا.مدهش. لو استطعت فعل ذلك سيكون الأمر غير مسبوق في تاريخ البشرية.

لم يلق بالا لكلامي وراح يضيف:

- الحواسيب أيضا، وألعاب الفيديو، والهواتف النقّالة، لن تحوي سوى ألعاب على شاكلة المزرعة السعيدة، المصنع السعيد، الأسرة السعيدة، الحياة السعيدة، السعادة السعيدة

- السعادة السعيدة؟ عجبا وهل هناك سعادة غير سعيدة؟

- نعم... تلك التي يشوبها قلقنا غير المبرّر من أن تنتهي.

ثم أضاف:

- لن أُبقي في ذاكرة الحواسيب سوى على برامج تعليم اللغات... كل لغات العالم، سيفهم كل البشر لغات بعضهم البعض، وسيمكنهم السفر من أي مكان إلى أي مكان يرغبون فيه... لن تكون هناك جوازات سفر، ولا شرطة حدود ولا حدود أصلا. ألم يجعل الله الأرض بساطا؟ ستكون إذا بفضل مشروعي بساطَ أمن وأمان، وحبّ وخير وسلام.

- وماذا عن القوانين؟

- لن نحتاج لقوانين مطلقا لأنَّ لا أحد سيخطئ في حق أحد. سيكون هناك قانون واحد يحترمه الجميع هو «قانون الأخوّة».

يده دائما على الفأرة... والصور تتوالى على الشاشة، ومع كل نقرة يختفي وجه بائس من وجوه مدينتنا، ويظهر مكانه وجه أخر مشرق، جميل.. أحياء غاية في النظافة والترتيب والنظام، أشجار مخضرّة باسقة انتشرت على حافات الطرقات، واجهات العمارات والدكاكين بألوان زاهية، أصص

obeikan.com

من الأزهار الجميلة تزيّن شرفات المنازل والشقق... اختفت الطوابير عند المخابز والحوانيت، اختفت الأوساخ وحاويات القمامة، لا أثر للمتسوّلات المتّخذات الأرصفة سكنا ومقاما على مدار السنة، لا أثر لمجانين المدينة، كل الوجوه نظرة مستبشرة كأنها في يوم عيد، و...عجبا! ماذا أرى؟ في مقهى / عفوا مكهى / العم رضوان يجلس جنبا لجنب سليمان الحلاق مع عمي أحمد الجزار، يتجاذبان أطراف الحديث، ويبتسمان في حميمية واضحة وهما اللذان ظلاّ مضرب المثل في العداء. عداوة امتدت عبر الزمن من الجدود إلى الأبناء إلى الأحفاد بسبب خصومة حول قطعة أرض.

هل أنت مستعد ..؟

قلت نعم وقد أخذ مني الفضول كل مأخذ. حُبست أنفاسي وجحظت عيناي.

فجأة صرخ كمن لدغته أفعى سامّة:

آه... فيروس.. فيروس خبيث ضرب البرنامج... اللعنة..اللعنة.. شلّه تماماً .كلها حسبتها إلا الحماية لم أعمل عليها بشكل جيد. ضعت. ضعت. ضاع تعب خمسة وعشرين عاماً.

وظلّ يدور حول نفسه ويصرخ كالمجنون:

ضاع تعب العمر. ضاع تعب العمر

obeikan.com

مجسم نصفي آخر في المرآة

1

في كل مرة أشكو له حالي، يذكّرني صديقي محسن بالفرق بيننا وبين الغرب، وكيف / لأنهم إنسانيون ومتحضّرون، على حدّ زعمه / يسارعون بعرض حيواناتهم الأليفة على الطبيب النفسي حين يلاحظون تغييرا في سلوكياتها!

يقول لي محسن مازحا: «اعرض نفسك على الطبيب في أقرب وقت؛ إذا كنت تعتبر نفسك أرقى، ولو بقليل، من حيوان أليف»!

محسن يعرف موقفي من الأطباء النفسيين، وأنّي أعتبرهم مرضى نفسيون. مجرد أشخاص امتلكوا كمّا من المعلومات يحاولون تطبيقها على غيرهم. معظمهم يتصفون بالفظاظة، ويفتقدون للإنسانية والمهنية، يرون المريض مجرّد حالة. تجّار يستنزفون ذاكرتك وجيوبك، يلعبون بذكرياتك، ويعزون كل حالة شعورية تشرحها لهم؛ إلى خرافة الكبت وقيح الذاكرة المنحدر من سنين الطفولة الأولى وسوء تشكّلنا بها.

كنت دائما أقول... كيف يعقل أنَّ شخصا آخر يعرف نفسك أكثر منك؟

obeikan.com

2

صعبٌ بأن تعترف لنفسك بأنك مصاب بتخلخل في بنيتك النفسية أو قواك العقلية أو لديك عجز غير ظاهر للعيان! واضح أنّ الفرد منا قد يتقبّل عاهاته الجسدية، ولكنه يجد حرجا في تقبّل عاهاته النفسية، ربما لأنّ لذلك علاقة بنظرة الناس والمجتمع للرجل، خاصة بالنسبة لرجل مثلي... في مركزي، عرف دائما بالاتّزان والتعقّل والهيبة.

يا للسّخرية... ماذا لو اكتشفوا ما أصابك... هل تراهم يحترموك؟

«أخاف أن ينتهي بي الأمر إلى الجنون يا صديقي» أقول لمحسن... فيقول لي بنبرة لا أستطيع أن أتبيّن جدّها من هزلها... «أنت محظوظ... لا يسقط في بئر الجنون سوى العباقرة»

ولم أكن أريد العبقرية .أقصى ما كنت أتمناه أن أروّي عشقي للقراءة ويفارقني هذا الأرق وهذا القلق القاتل، وأحظى بنوم هادئ مثل بقية خلق الله، وأن أستطيع إتمام بحثي الذي يتوقّف عليه مستقبلي المهني... طبعاً لم أتجرأ على الاعتراف له بالسبب، بل حكيت له الأثر فقط.

عاد محسن يلحّ ويثني على مناقب الدكتور عبد العظيم..

بصراحة لا أدري ما الذي سيفعله من أجلي ومن أجل إصلاح عطبي طبيبك المتمكّن هذا... أكيد سوف يسألني إذا ما كنت أحسّ بالذنب تجاه أحد... أبي مثلا أو أمي، وإذا كنت وأنا طفل أتمنى موت أبي لكي أظفر بحب أمي واستأثر باهتمامها، أو إني أفضل النوم جنبها ولا أستطيعه بعيدا عنها ... سينظر لي كحالة وليس كانسان... ثم يصف لي عقاقير، منشطات حيوية أو مهدئات عصبية ويحشو دماغي بكمّ هائل من النصائح / لو كانت النصائح مفيدة لعمل بها أصحابها. ومصيبة الطب النفسي أنّه لا يملك سواها!/

لكن مشكلتي تفاقمت، وتحوّل ليلي إلى كابوس، وتزامن حلول الظلام من حولي مع حلول الهواجس والهلوسات. أثّر ذلك على عملي، وعلى علاقتي بزوجتي وأولادي.

وقصدت عيادة الدكتور عبد العظيم.

3

دلفت إلى العيادة .انتظرت للحظات في قاعة الانتظار .كانت هناك بضعة أنفس على أهبة التشريح ملقاة على الكراسي .وجاء دوري. أخذت مكاني على الكرسي أمام الدكتور، وفي الحال تبخّرت الصورة التي طبعت في ذهني عن

obeikan.com

المظهر الخارجي للطبيب النفسي... الذي أمامي ليس مسنًا ولا أصلعَ ولا كثيفَ الشارب، ولا يضعُ نظارات طبية سميكة، ينظر لي من فوقها.

الغرفة مريحة. ديكور جميل. بضع لوحات تشكيلية تزيّن الحائط المقابل لمكتب الطبيب. تكسو النوافذ ستائر باللون الأزرق الفاتح، وفي الركن طاولة التشريح النفسي.

سألني الدكتور عبد العظيم، وهو يكشف القميص عن ذراعي لكي يقيس ضغط دمي:

- ما هذه العلامة هنا؟هل حاولت الانتحار بقطع شريانك؟

- لا... هذه من أثر إبرة التطعيم في صغري.

كما توقّعت تماما... يعتقد بأنّه يراني من الداخل، أكثر مما أرى نفسي، وبأنّه الوحيد القادر على تحريري من حبل الموت المتدلّي من عنقي

أنا انتحر؟ لا أظن. قد أكون فكّرت في ذلك فعلا في أحلك أزماتي، لكني لم أفعل. لا ينتحر سوى الشجعان، وأنا رجل جبان... على عكس ما يعتقد الكثيرون، لكي تنهي مهمة انتحارك بنجاح؛ لابد أن تكون قويًا وشجاعًا، وأنانيًا أيضا، بما فيه الكفاية.

«الانتحار هو الطريقة التي تجعل الإنسان مشهوراً من دون أن يمتلك قدرات.» بالعكس يا برناردشو... المنتحر يمتلك قدرة عظيمة لا يملكها غيره، هي القدرة على التفوّق على الموت، على كسر عنق خوفه منه.

وكنتُ دائما رجلا ضعيفا أمام إغراءات الحياة، جبانا حيالَ فكرة الموت

4

على مكتب الطبيب أقلامٌ وصحفٌ وبضع كتب، قرأت إحدى العناوين «الإجهاد الذهني والجنس»، ومجسّم صغير باللون الأسود لمفكّر.. ذكّرني بمنحوتة أوغست رودان، بَيْدَ أنّه مختلف عنه قليلاً... ليس لرجل ولا لامرأة.. فقط جزءٌ علويّ من جسد، ووجهٌ بلا ملامح، لا أنف ولا فم ولا عينين... وذراعٌ واحدة فقط / اليمنى / وكفّ اليد مبسوطة تماما، تسند الرأس.

كان الدكتور يمطرني بالأسئلة، ويخربش على ورقة أمامه... سألني عن مهنتي، عن أوقات فراغي وهواياتي، عن عائلتي، ثم طلب مني أن أحدّثه عن طفولتي، ماذا أذكر جيدا عن طفولتي. رحت أسرد له أحداث ومواقف رافقت صغري... ساعة أخرجني أبي متلصصا من تحت سرير النوم، ولفّت أمي جسدها العاري بشرشف، يوم ضبطني وأنا أدخّن، نجاتي من الغرق بأعجوبة في النهر وأنا أصطاد السمك مع رفاق الحي

ثم رحت أصف له حالتي... كيف ينتابني الأرق لساعات نتيجة احباطات متتالية، وأفيق من النوم مع اقتراب الفجر، أكون مذعورا والعرق يصّبب من جسدي، ثم ما هي إلا لحظة حتى

تحيط بي الهواجس وأرى رؤيا العين، أو هذا ما يتهيأ لي، أرى الشخوص التي في الكتب في مكتبتي تقفز من الرفوف ومن الأدراج، وتنتشر في غرفتي، فوق فراشي، فوق الوسادة، وتحت سريري... أشخاص صغار جدا، بحجم النمل الأسود الكبير... من كلّ الأشكال والألوان والأجناس، نساء، رجال، عجائز، أطفال، أصحاء ومعاقون... بعضهم يرتدي أثوابا تعود إلى العصور الحجرية، وبعضهم أنيق، وآخرون يرتدون بِزّات حديدية... ويبدو وكأنهم من عصر لم نشهده بعد... يحتل النمل جسدي، يدغدغني، يندسّ في خياشيمي وأذنيّ وعينيّ... وأبدأ أهرش، ثم أترك فراشي وأهرول نحو الحمام، أملأ الحوض بالماء، أفتح الصنبور، وأغطس فأرى الشخوص يغطسون معي. أفتح السدادة، فيندلقون مع الماء الساخن... وقتها فقط أهدأ وأعود إلى حالتي الطبيعية، وأستطيع أن أنام قليلا.

5

قال لي الدكتور عبد العظيم إن كل ذلك بسبب الإجهاد الذهني، وكثرة التفكير والسهر، نصحني بالراحة، والتوقّف عن العمل على مشروع البحث إلى حين أهدأ.

كنت بصعوبة أحاول التركيز مع الدكتور، فأجدني دون إرادة مني أبحلق من جديد في المجسّم الصغير الأسود. لا وجود لكل الجزء السفلي.ماذا لو أنّ كل نصفنا الأسفل بلا جدوى.. مثل

الزائدة الدودية، لا فائدة منها أبدا / لكنها إذا انفجرت تحدث خرابا كبيرا في الجسد ! /

كان الطبيب عبد العظيم يتحدّث، وكنت أفكّر... الرأس والأطراف العلوية، الدماغ واليد اليمنى: التدبير والعمل، الفكرة والحركة، القرار والانجاز... هذا هو المهم حقا، كل ما عدا ذلك من الأعضاء فائضٌ عن الحاجة... كل الأعضاء؟ القلب أيضا؟ القلب أوّلها... وهل يوقعنا في المطبّات غيره؟

خمّنت أنّ الدكتور عبد العظيم سيمدّدني فوق الطاولة لكي يشرع في تشريح نفسي... لكنه اكتفى بوصفة وابتسامة، وطلب مني زيارته بعد شهر

6

- ما بك؟ ماذا هناك؟

يبدو أن الهلع الذي لمحته في عيني محسن كان انعكاسا للهلع الذي رآه فوق وجهي.

- محسن أرجوك... رافقني إلى الدكتور عبد العظيم في الحال.

- ألم تخبرني بأنك بخير، وأنّ تلك الرؤى الغريبة زالت تماما؟

- نعم... أنام جيّدا منذ بدأت أتناول العقاقير لكني هذا الصباح بعد أن ارتديت ثيابي، وهممت بالخروج، نظرت في المرآة فلم أرَ نصفي السفلي!.

obeikan.com

حورية الشعر

عيون تتبعها بنهم... وأخرى تقيس بميزان الوَلَهِ قامتها الهيفاء.

أما أنا فقد بدا لي أنها لم تكن تمشي... وإنّما تسبح أو تطير.

حقا..كان فيها جاذبية عجيبة.

ذلك الفيلسوف الذي قرّر بأنّ على الأرض قوتان تتحكمان في الأشياء: جاذبية الأرض وجاذبية الأنثى، هل تراه تيقّن قبل أن يرحل بأنّ جاذبية الأنثى هي الأقوى؟

هزّت القاعة عاصفة من التصفيق، ثم خفتَ الصخب، وساد الصمت.

كنت قد اخترت الجلوس في الصف الأول، لكي أحظى برؤية أشمل أو ربما لكي أختبر ردّة فعلها حين تقع عيناها عليَّ.

كم من الزمن مرّ؟ عشرون سنة؟ خمسة وعشرون؟ ربما أكثر...لا أذكر بالتحديد...

لكنّي تغيّرت.. تغيّرتُ كثيرا مقارنة بها، تبدّلت ملامحي، والثلج لم يكتف بغزو فوديْ بل استباح كل مساحة شعري أو ما تبقّى فيه من مساحة. التجاعيد تكاثرت حول عينيّ، والسيجارة فعلت فعلتها الشنيعة في أسناني.

كنت وسيما في تلك الأيام البعيدة، أشبه أبطال السينما... لدرجة أنّ غروري وإعجابي بنفسي ظلا يوهمانني، بأنّ كل الصبايا كان يجب أن يقعن في غرامي، ومن أول نظرة.

الغريب أنّها لم تتغيّر. كأنّ قامتها أطول قليلا، وجسدها أكثر امتلاءً وأنوثة، لكنها لم تكبر.. نفس النظرة المخملية، زادها سحرا تمدّد الكحل فوق الجفون... نفس الابتسامة الحلوة المغرية بالتقبيل.

فقط ثمة أنامل عبثت في شعرها فبعثرته فوق كتفيها.

ما أزال أرى بعين الذاكرة خصلاتها الشقراء معقوصة، لامعة، متدلّية كضفيرة من حرير فوق نهدها الشامخ.

عجبا! كأنّما الزمن الذي مرّ بكلينا ليس نفسه، أو كأنّه مرّ بي... حانقا، عاصفا، مزلزلاً، ومرّ بها مهدهدا، حانيا، مربّتا بمنتهى الحب على شعرها وعينيها وجسدها..

أخذت مكانها أمام الميكروفون.

نظرت في الحضور وابتسمت.

مدّت يدها لتهذّب خصلة من شعرها الأشقر... مشاغبة، شردت فوق جبينها اللجين.

كانت مذهلة مثل أوّل قبلة

همس رؤوف في أذني وهو يميل بكتفه على كتفي.

- إذا أحببت أن تتخيّل شكل الفردوس؛ تأمّل حسناء تعزف على البيانو أو ترسم لوحة أو كهذه... تقرأ الشعر!، كان في عيني رؤوف بريق غير مألوف... وكأنّها سكبت بعضا من نور عينيها في عينيه يوم قابلها .

أومأت مؤيدا دون أن أنبس بحرف، وقلبي ينشد «لوركا»:

أتراني إذاً لم أزل أحبّك.

مثلما ذات يوم أحببتكَ؟

أي ذنب اقترفه قلبي.

آه لو كان في وسع أصابعي.

قطف بتلات القمر!

كان كل كياني مشدودا إليها، معلّقا بشفتيها قلبي في حالة استنفار، وذاكرتي تفور بصور بعيدة متداخلة.

رائع أن تستمع إلى الشعر بصوت أنثى، ولكن الأروع أن تجلس في سكون وتتفرّج على صورة جميلة من ألبوم ماضيك البعيد.

رؤوف يعلم ولعي بالأدب وعشقي للشعر، رغم انغماسي في ميدان المحاماة لسنوات طويلة.... هاتفني منذ يومين وكلّه حماس «ألوو... الشاعرة التي حدّثتك عنها... من؟ تلك التي أجريت معها حوارا منذ أيام...أمسيتها الشعرية يوم غد. لابد أن تحضر... أجّل كل أعمالك».

Opeikan.com

يعتقد بأنّها ستكون اكتشافا لي، هذه الأنثى المثيرة كرحلة استكشاف لا يدري بأنّي عرفتها قبل الآن وعشقتها بجنون ومتّ فيها

كان ذلك حين أجّلت دراستي في الحقوق واشتغلت بتدريس اللغة العربية في الثانوية لمدة سنتين لكي أوفّر مصاريف التخرّج...

ومن أول يوم، بل من أول حصة شعرت بميل قوي نحوها، إحساس غريب ملك عليّ كل حواسي... جميلة جدا، بضّة وممتلئة، أنوثتها متفجّرة، تتحدّى أعوامها الستة عشر.

في حضورها سحر، ما رأيته في أنثى قبلها ولا بعدها. في عينيها خليط رائع من براءة الطفولة وعذرية الصبا، ونداء الأنوثة المحتشمة... ذلك الاحتشام في الأنثى الذي يزيدك بها شغفا... وكانت ذكية جدا، وموهوبة... تكتب الشعر... تسلّمني نصوصها، فأراجعها لها وأعطيها رأيي.

ذات مرّة، قبل عطلة الربيع بأيام، طلبت منها المجيء إلى منزلي لكي أسلّمها مجموعة من الكتب تطالعها أثناء العطلة...

استقبلتها في غرفتي وأنا ممدّد على سريري، نصف عار

كان ممكنا، بل مناسبا أكثر ومحترما أن أستقبلها في غرفة الجلوس، لكني طلبت من أختي الكبرى أن تدخلها لغرفتي، متحجّجا ببعض الوهن، وعدم قدرتي على القيام من السرير...

obeikan.com

«وماذا في ذلك؟ تلميذة تقصد أستاذها من أجل كتاب، ما الضّير في أنها تدخل غرفة نومه !

ما أسهل أن نجد الأعذار لأفكارنا الطائشة

كنت قبل موعد قدومها قد حلقت ذقني وتعطّرت، ووقفت طويلا أمام المرآة... لم يكن «الجل» قد وصل إلينا بعد في ذلك الزمن، فبللت كفيّ بالماء ومرّرتهما على شعري الأسود الغزير متعمّدا جعل غرّتي كثيفة جدا كما موضة تلك الأيام

كانت تتحدّث معي عن حلمها، بأن تصبح شاعرة، وكنت أحملق في نهدها الثائر وهو يكاد يشق ثوبها الأزرق البسيط

ولعلّها انتبهت لنظراتي؛ فأطرقت خجلا، وقد احمرّت وجنتاها، فازداد هيامي بها، وأحسست بتسارع نبض قلبي، وبقوّة لا أفهم كنهها... تدفعني إلى أن أضمّها إلى صدري، وأغرق خديها وجيدها تقبيلا...

لكني تماسكت، فقد بدت لي ضعيفة جدا وبريئة جدا، وهشّة كجناح فراشة

ودعتها عند الباب، وقد شعرت بالشفقة عليها... من جنوني وشهوتي وحبّي العاصف.

كانت تحتضن الكتب وتبتسم لي، وتتمتم «شكرا لك أستاذي» .ربّت على كتفها بحنان، محاولا جهدي جعلَ حركة يدي بريئة فعلا، وكنت أنظر إليها ولا أراها... لم أكن أرى

سوى نهدها في كفّي، وشفتيها تذوبان بين شفتي... نهداها، جنّتان من عنب ورمّان، شفتاها القرمزيتان الممتلئتان، نهرا عسل لذة للمغرمين

كانت معي، في بيتي، في غرفتي، قرب سريري ولم يكن يمنعني عنها شيء

حقا لا شيء؟ لا شيء أبدا؟

آه.. مهلا.. ذاك الإحساس اللعين الذي يمزّقك.. صفّارة إنذار تصيح بك بأنّ في الأمر خطأ، وأنّ ما تفعله غير لائق وخطير، صوتٌ حادٌ يشطر روحك نصفين، نصفٌ يقف معك، ونصف يقف ضدّك، نصفٌ يدفعك... يشجّعك، ويشدّ على يد جنونك، ونصفٌ يشهر في وجه شيطانك إشارة قف.

أغلقت الباب خلفها وعدت أدراجي للغرفة، وسهام تقذف رأسي، وصوت يفحّ في أذني... أيها المنحرف المجنون البائس... إنها تلميذتك...ألست تبدأ الدرس بـ «أبنائي وبناتي الأعزّاء»؟

يا لك من منافق... يا لك من شاذ مريض!

كان من بين الكتب التي سلّمتها إيّاها «أنتِ لي» لنزار كتبتُ لها على صفحته الأولى إهداءً كأنّه رسالة حب... وبقيت لأيام أسأل نفسي، هل فهمت الرسالة؟ ولماذا لم تكن منها أيّة ردّة فعل؟ لعلها لم تفهم ولكنّها ذكية.

ولم تحضر الحصة بعد العطلة. أخبرتني زميلة لها، بأنها سافرت لمدينة أخرى مع عائلتها. والدها ضابط في الدرك وكانت العائلة تضطر للرحيل كل أربع سنوات.

وانقطعت كل أسباب اللقاء بيني وبينها، إلى أن كان يوم، كنت أتجوّل داخل مكتبة واصطدمت عيناي بصورتها واسمها على مؤلف ذي غلاف جميل «حورية الشعر»... شعرت بفرحة عارمة، ولكن العنوان لم يفاجئني، فقد كانت حقا حورية، حديثها شعر، مشيتها تفعيلة، التفاتتها موسيقى، وابتسامتها قصيدة.

- تشرّفت بلقائك سيدتي

تمتمت حين قدّمها لي رؤوف في نهاية الأمسية كنت أنتظر أن تشهق لرؤيتي.

- شرف لي سيدي.

يا الهي... لم تتعرّف عليّ.

دويّ الصفعة على خد قلبي كان قويا لدرجة إنني لم أسمع ما كان بعد ذلك.

رأيتها تودّعنا وتضيع وسط الزحام

ووقفت غير بعيد أرقبها، وهي توزّع ابتساماتها على الجميع، وعيناها الجميلتان تقذفان في القلوب المطفأة جمار العشق، وتأخذان من العيون وعودا بالسّهد والجنون.

obeikan.com

حيثُ يسكنُ الزمن

9

دائما على عجلة من أمرك كأنّك في سباق مع الزمن..
هكذا عرفتُك وعرفَتْكَ بناتك مذ وعين.

تقصدُ باب الخروج مهرولا بخطواتك السريعة القصيرة، يشيّعك كلبك حتى الباب محرّكا ذيله بحركة متناغمة وبنسق واحد . يخلو الجو للبنات . ترفع الصغرى صوت الراديو، ترقص الكبرى على وقع الأغنية ... تحاول تقليد فنانة اشتهرت في تلك الأيام، يصير العالم داخل البيت لوحة بألوان زاهية متداخلة... تشارك نورا، ابنتنا الوسطى، أختيها للحظات في مهرجان الفرح، ثم تهرع إلى قلعتك لتسرق نصيبها من المتعة والدهشة.

8

أفتح الباب بحذر ، أدخل غرفتك... تِكْ ...تَكْ ...تِكْ... تَكْ، التكتكات تدغدغ رأسي كأنها تضرّعات هاربة إلي من ملكوت النسيان ... تحدث فيه فوضى لذيذة، ساعات كثيرة ... بعضها منجز ومثبّتٌ على الحائط بفترة نقاهة ... حركة الرقّاص فيها ذهاباً وإيابا تبدو كنسغ الحياة ... بعضها الآخر فوق الطاولة شبه ميت أو على الأرض وقد أخرجتَ قلبها فوق خرقة قماش، وانتزعتَ أحشاءها ... مسنّنات بأحجام مختلفة، نوابض،

أجراس، مطارق دقيقة للتنبيه. ساعاتٌ نسائية ورجالية، صغيرة وكبيرة، خشبية وأخرى حديدية . أتصوّر بأنّي دخلتُ الكهف حيث يسكن الزمن بيت الزمن غرفة نوم الزمن / أو غرفة يقظته!/

أفكّر الآن في أمر يا أبي... كبسولة الزمن، فكرة مدهشة لو أنها تتجسد فعلاً... لو يمكنني أن أستقلّها وأسافر في الزمن، لكني لن أسافر إلى المستقبل... ليس يعنيني أن أكشف الحجب عن الآتي لأنه انتهى.

أتمنى لو أستطيع أن أعود إلى الماضي!

7

الماضي، الحاضر، والآتي، ألا تبدو كمعادلة رياضية؟ كنت أكره الرياضيات... وما زلت... لا، ليس الأمر هكذا تماماً.. الآن لا أحمل سوى شعور محايد تجاه الأشياء... نورا ورثت ذلك عني، هي أيضاً تكرهها، أنت تعرف بأننا نكره الرياضيات، أو لعلّك لا تعرف. معادلة من ثلاثة مجاهيل! تحاول حلّها. تحاول أن تتقدّم غير أنك تظل في نقطة البدء رغم أنك تتقدم... ربما في أحسن الأحوال / أو أسوأها؟ / تتقدّم في حل المعادلة بطريقة خاطئة، فتصل إلى نهاية خاطئة تماماً، كما وصلنا، وتغيب عن مسرح الوجود قبل أن تولد فيه، ولكنك لا تكتشف ذلك إلا بعد فوات الأوان.

قل لي كيف سنفهم الحاضر؛ إذا كان يعوزنا فهم الماضي؟

6

تصوّر معي يا أبي لو أن حياتي الماضية وأحداثها كتاب أحمله الآن بين يدي، وأعيد قراءته بعيني هذه وفي زمني هذا... لن أصدر حكما، ولن أكتب أي تعليق على هامش الصفحات، وبالطبع لن أستطيع تغيير حرفٍ في الكتاب، ولا استبدال فقرةٍ بأخرى، ولا تغييرَ المقاطع أو تبديل أماكنها، ولكني ربما سأفهم لماذا حصل الذي حصل؟ سأحمل قلم الرصاص وأطلق نار السطور على كل حدث لا أدري كيف حدث وقتها، في محاولة منّي ولو متأخّرة لإدراك الذي جرى... وكيف جرى ولماذا..

ما الجدوى من كل ذلك؟ قد تسألني... ما نفعُ أن أفهم الآن الذي حدث وقتها؟

بصراحة لا أدري يا أبي... أخبرني أنت... لماذا يتعب المؤرّخون ويرهقون أنفسهم بتدوين التاريخ؟ لكي يتركوه للأجيال القادمة ستقول لي.. عبرة وتذكرة ودرسا.... جميل... إذا كانت الأجيال ستهتم بتاريخ لم تكن فيه... ولا يعنيها؛ فأنا أولى بأن أراجع تاريخا كان لي وكنتُ فيه... بل كنتُ بطلته .

يبدو هذا منطقيا جدا.. سببا مقنعا لكي أحلم بالعودة إلى هناك.

5

أتمنى لو أعود أيضا... أحمل لك القهوة في المساء، وأنت تجلس في حوش البيت غير بعيد عن شجرة التين الضخمة... أضع الفنجان بكل هدوء على المائدة... أقف لبرهة أراقبك

obeikan.com

وأنت - كما دائما - في حالات ثلاث لا رابع لها: إمّا تلمّع بندقية الصيد أو تبحث عن محطتك المفضلة لتستمع للأخبار من الراديو الأسود الصغير أو تصلّح ساعة من الساعات، وقد ثبّتت المكبّر - ناظورك الصغير- بطريقة محترفة على إحدى عينيك، وأحنيت رأسك.

لن أعود أدراجي مسرعة كما كنت أفعل. سوف أجثو على ركبتي أمامك وأسألك: هل نذرت للرحمن صمتا يا رجل؟ أيّ شيء أغناك عن الحديث إلينا، والتقرّب منا؟ بل أي سرّ في الصمت أغراك بتغييبي؟ وأين ترصّني وبناتك في هرم عالمك، ما هو ترتيبنا في سلّم اهتماماتك وأولوياتك وفي دائرة هواياتك: بندقية الصيد، الكلب، أشجار الحديقة، المصحف، الكتب القديمة المصفرّة، الراديو، نشرات الأخبار، الصمت، التأمّل؟

أم ترانا خارج الدائرة تماماً؟

4

بارعا كنت في تصليح الساعات يا أبي... يقصدك أناس كثيرون لتصلح ساعاتهم.

في ذلك الزمن كان للزمن قيمة، وكنت أعتقد أنّه يمكنك أن تصلح الزمن... أيضا.

لكنك رحلت قبل أن تساعدني في رأب صدع زمني.

obeikan.com

الزمن خديعة كبرى يا أبي... مجرم يحثّك على بدء السباق معه... يوهمك بأنّك الرابح الأكبر، ثم في منعطف خطير يزحلقك فتقع. يتركك شظايا... ويمضي ضاحكا من غبائك.

زمني تكسّر يا أبي... خدعني الماضي، والآتي مضى قبل أن يأتي.

وها أنا ألملم أطراف الثواني وأعبر نهر الحروف بزورق من ورق...

إنّي اليوم صامدة وصبورة وهادئة، أغري عقرب الوقت بخبز الكتابة، وأتحايل على الزمن الماراثوني باحتساء نبيذ الحرف.

أقتربُ بحذر وشوق من ركن في غرفتك، أقرفصُ في مواجهة كتبك... أتحسّسُها بقلبي.

أمسحُ عليها بأناملي بمنتهى الحب، أفتحُ كتابا وأقرأ.

أظلُ هناك أقرأ وأقرأ وأقرأ.

أنسلخُ عن العالم.

3

فجأة يركض الكلب باتجاه الباب الخارجي للحديقة.

يرتفع نباحه، أعرف وتعرف البنات بأنك ستدخل بعد ثوانٍ.

تخفض الصغرى صوت الراديو.

تجلس الكبرى بكل وقار وهدوء في ركن من الصالة.

تعيد نورا الكتاب إلى مكانه . تقبّله بنظرتها .تخرج.

أعودُ أنا إلى سديمي.

obeikan.com

2

تك ...ت... ك ... ك... أغلق القلعة على الساعات.

أبتسم .أتصوّر حوارا سيكون بينها بعد أن أخرج.

بين ساعة معطّلة مثلا وساعة تمّ إصلاحها.

ترى ماذا يفعل الوقت حين يضيع وقته؟

وكيف يستدرك الزمن ما يفوته من زمن؟

يدخل أبي . تتبدّلُ سحنة الزمن. تسيحُ الألوان.

يصيرُ العالم داخل البيت لوحةً بلونٍ واحد.

1

رأتك نورا في منامها البارحة.

كان وجهك دائرياً... وعيناك ساعتين.

ساعتين بلا عقارب.

0

وكنتَ... بلا فم.

obeikan.com

ونعود به إلى الجنة

لم يفارق المشهد ذاكرتي أبدا.

ظلّ محفورا في قلبي كوشم قديم.. حتى وأنا ألج قطار الأربعين:

أمي في غرفة النوم، تجمع الثياب عشوائيا من الخزانة وتدسّها بعصبية داخل حقيبة كبيرة مرمية فوق السرير.

«ساعدني في جمع كل أدواتك المدرسية وأغراضك. سنذهب إلى بيت جدك»

صوت أمي كان غريبا .فيه صرامة وحزن لم أعهدهما .

لمَاذا كل أدواتي أغراضي؟

كثيرا ما كنا نزور بيت جدي خاصة في نهايات الأسابيع، ولم تكن أمي تحمل معها سوى حقيبة صغيرة فيها بعض الحاجيات الضرورية والفاكهة التي تحبها جدتي.

اقتربت منها أستفسر عن الأمر فهالني احتقان وجهها والدمع منهمرا من عينيها.

مددت يدي أتلمس وجنتيها كأنما لأتأكد مما رأيت . لا أذكر أني رأيت أمي تبكي بتلك الحرقة قبل ذلك اليوم أبدا، حتى عندما تتخاصم وأبي لسبب ما، أو عندما تزورنا عمّاتي

obeikan.com

ويحتدم النقاش وأحيانا يرتفع صوت عمّتي الكبرى، كنت ألاحظ انزعاج أمي لكنها لا تبكي .

لم ترد أمي إخباري بشيء، وفي بيت جدّي أيضا كان الجميع يتهرّبون من أسئلتي ..أو يلقون في وجهي بأجوبة لا تقنعني ولا تشبع فضولي.

ما الذي يحدث ولماذا اختفى أبي، ولماذا لا نعود وأمي إلى بيتنا؟

أسبوع انقضى.. أسبوعان، ثم ثلاثة، وأمي لا تعود بي لجنّتي، وأبي لا يظهر.. والحنين لكل شبر في بيتنا الجميل يغزو كياني كل يوم أكثر، غرفتي، ألعابي، دراجتي، مشاغبتي أبي حين يعود من العمل، نهايات الأسابيع حين يسمح لي بمرافقته إلى النادي فألتقي بأصدقائه ويقدّمني لهم قائلا: هذا البطل سيصبح طيارا / كنت أحسّ بزهو شديد /، المساءات الصيفية الجميلة حين أساعده في سقي أزهار الحديقة بينما أمي تحضّر لنا كعكة لذيذة ..

ذاك كان عالمي، حياتي، وجودي. غير معقول أن أفقده مرة واحدة

كانت التساؤلات تتكاثر في رأسي كفطرٍ سام، وقلق أسود يلقي بغيمه على روحي..كنت حزينا رغم اهتمام الجميع بي

.الحب والرعاية يحوطانني من كل جانب، لكن شيئا يشبه العدم كان ينبت ببطء في حقل قلبي.

ثم... زارنا أبي في بيت جدي للمرة الأولى.

أصبتُ بالتهاب اللوزتين .نقص وزني وفقدت شهيّتي للأكل وعاثت الحمى بجسدي وكنت أبكي كثيرا وليلا تخنقني الكوابيس وأهلوس بأبي

حبيبي.. والدك هنا.. جاء لزيارتك.

وقفز قلبي في صدري من الفرحة.

تحاملت على وهني ونهضت من الفراش. رميت جسدي في حضن أبي. لم أبك ولكني شعرت وقتها برغبة في ضربه وبكل ما أملك من قوّة.

كانت لحظة الفرح قصيرة فقد غاب أبي بعدها من جديد. تعافيت من مرضي غير أني عدت إلى حزني وقلقي وتساؤلاتي.

وفكّرت أنّ أبي لا يأتي إلا حين أكون مريضا. لابد إذا أن أمرض، ومرات عديدة.. المشكلة أنّ صحتي تحسّنت جدا الجميع مهتمون بي..يبالغون في تدليلي، يحرسون على أكلي ونظافتي والترفيه عني..كأنّما يريدون حمايتي من خطر محدق.. أو مواساتي أو تعويضي.. تعويضي عن ماذا بالضبط؟

obeikan.com

لم أفهم شيئا وقتها.

رياض رفيقي في المدرسة يقول لي:

والدك لن يعود أبدا.. ستعيش بعيدا عنه مثلي أنا.

لم أجد الشجاعة لكي أفكّر في أنّ كلام رياض قد يكون صحيحا.. مستحيل.. لن أعيش بغير أبي.. غير ممكن.. لا معنى لحياتي بعيدا عنه.

لا بد من وجود طريقة أجعل بها أبي يحس بالشفقة عليّ ويعود إلينا، كأن أصاب بمرض خطير مثلا أو..أو تدهسني سيارة / لكن لا يجب أن أموت / أو أصاب إصابة بليغة في شجار مع أحدهم.

شجار؟ ورنّ جرس الفكرة في رأسي.

حاتم لن يفهم وربما لن يغفر لكن أبي قد يعود. الأمر يستحق المحاولة

حاتم.. حاتم.. سأتعمّد مضايقته، أبالغ في شتمه أمام الرفاق.. سأذكر شيئا عن مهنة والده../ كان والد حاتم فقيرا معدما، يعمل اسكافيا في محل صغير بائس / حاتم عصبي بطبعه وعنيف.. سوف لن يحتمل الإهانة خاصة أمام من يحب.. /سأتخيّر الوقت الذي تمر فيه سلوى بالحيّ /.. سيمتلئ حاتم بالغضب، سيبحلق في الرفاق وقد تجمهروا حولنا

ساخرين منه.. سيلمح الهزأ في عيون سلوى.. يغلي الدم في عروق حاتم، ينهال عليّ صفعا وركلا.. تتعالى أصوات الرفاق مشجّعة، أمثّل الدفاع عن نفسي لكني أترك جسدي عرضة لغضب حاتم.. أسقط أرضا و.. يشجّ جبيني

العجيب، ولحسن حظي، أنّ القدر أنجز السيناريو كما تخيّلته تماما، ولم أفق إلا وأنا في المستشفى ومن حولي جدي وجدتي وخالي وخالتي وأبناء خالتي وأبي.. نعم أبي...

رضوض في كل جسدي وألم في عيني اليسرى ورأسي معصوب بقطعة شاش.

كان الخوف يغلّف سحنة أمي. راحت تمعن في معاتبتي وتذكّرني بأنها مرارا نبّهتني لعدم الدخول في شجارات مع الرفاق.

وسمعت أبي يقول لها «ليس هذا وقت محاسبته.. الحمد لله أنّ الجرح ليس عميقا».

ثم يردف وهو يرمق أمي بنظرة فيها من الحنان أكثر مما فيها من العتاب أو الغضب..

- سنمرّ ببيت جدّه نحمل الأغراض ونعود به إلى البيت

ورغم أنّي كنت منتبها جدا لحديثهما إلا أنّ العبارة الأخيرة وصلتني بهذه الصيغة.. «ونعود به إلى الجنة».

obeikan.com

الحب يُسقط كلّ اللاّءات

الآن، وبعد مرور سنين طويلة، أتصور أنّ الأمر كان صعبا، خاصة بالنسبة لأمي.

محبطٌ أن تنجب المرأة بنتا لا تشبهها.. أليس كذلك؟

أعترف لكم، أنا نفسي لا أفهم من أين جاءني الفيروس، ولا عمّن ورثت جينات الرفض والتمرّد والعصيان. أمي هادئة، ومطيعة، ومستكينة.. ما رأيتها يوما متذمّرة أو حانقة أو شاكية. وجودها يتلخّص في إرضاء أبي وإسعاد العائلة.

أختي الكبرى مثالٌ في التهذيب والتأدّب والطاعة وأختي الأصغر على شاكلتها تماما.

بينما أنا متمرّدة، متعنّتة... هكذا خلقتُ.

كان لكلمة «لا» في أذني وفي قلبي وعلى لساني وقعٌ خاص، رنينٌ كرنين الذهب. متعةٌ عجيبة كنت أجدها في قول «لا».. ومتعة أكبر حين أنتظر بكل هدوء رؤية وقعها على الآخرين.

كنت أكره لفظة «نعم» لا أطيقها.

لا مجال للمقارنة. «لا» الجبّارة.. حادّة، قاطعة، قوية، مثيرة، مخيفة.. كأنها الزلزال.

و«نعم» الصاغرة.. رخوة، متدلّية، ضعيفة، واهنة، هزيلة.. كأنّ بها الكساح.

أسمتني أمي حمامة...تيمّنا بجدّتي لأبي وحبًا فيها في ظاهر الأمر، وخوفا من أبي في واقع الأمر ونزولا عند رغبته..

حمامة!..يا للخيبة! لم يعجبني أبدا.. حمامة! وتاؤها المربوطة / كم كنت لا أطيقه منظر تلك الحمامات الرمادية البائسة وهي تصطفّ مساء فوق سور بيتنا وتشرع في عزف سمفونية النواح وكأنها تندب حظا عاثرا سقط فوقها من السماء!/

كان اسمي أول مواجهة لي مع سخرية الأقدار، أول ارتطام لرأسي بصخرة الحتمية.

لماذا يفرض علينا الاسم؟ ألم يكن ممكنا بطريقة ما أن يختار كلّ منا اسمه؟

يا لحظّك يا حواء! يختار لكِ القدر والدك، ويختار لك والدك والدتك.. وتختار لكِ والدتك اسمك.. ثم يختار لك الاثنان أثوابك ودماك وألعابك وأصحابك وتسريحة شعرك، وكتبك ومدرستك، وبعدها سيختارون لك زوجك ..فمتى يكون لك الخيار؟

كنت أستغرب كيف لا نختار زمان ميلادنا ولا المكان

لا نختار آباءنا ولا أشكالنا

لا لون أعيننا ولا قاماتنا

لمَاذا لا يمكننا على الأقل اختيار أسمائنا؟

في الجامعة كنت أقول لزملائي لو أقرّر الزواج يوما وأرزق بأولاد فسأطلق عليهم حروف الأبجدية.. سأسمّي الأول «أ» مثلا، والثاني «ب»، والثالث «ن» وهكذا.. وحين يكبرون ليختر كلٌّ الاسم الذي يحب.

يبتسم أصدقائي ساخرين. اعتادوا غرابة أفكاري وشطحات خيالي.

كرهت اسمي وكل الأسماء المؤنّثة التي تنتهي بتاء مربوطة .وكرهت الربط وأدواته.. الحبال والعيون والمتوارثات والحركات والأفكار. كرهت الدائرة والمربع والمثلث والمستطيل وكل الأشكال التي تبدأ مفتوحة، متحرّرة، منطلقة، ثم تقرّر / أو يقرّرُ لها /أن تنغلق على ذاتها

وفي سن الثالثة عشرة على ما أذكر قرّرت تغيير اسمي.

كنت قد اكتشفت سحر المطالعة بعد أن استلفت «ألف ليلة وليلة» من المكتبة الوحيدة القديمة التي بالقرية. أغرمت بالحكايات وعشقت عالم شهرزاد السحري.. و عشقت اسم شهرزاد.. شـ هـ ر زاااد.. آه .. الألف الممدودة، بلا قيود ولا ربط، من أوّل التكوين إلى آخر الخلق وشتّان بين الرّبط والمد!

قررت أن يكون اسمي شهرزاد .بدأت بالجيران وصديقات الحي والمدرسة من يناديني شهرزاد يحظى بمكافأة وبصحبتي وصداقتي.. ومن يصر على مناداتي حمامة لا أردّ عليه .

طبعا لم يكن لي، في ذلك الزمن، مثل شهرزاد حكايات لكي أرويها، ولكن في رأسي الثائر كانت هناك حكاية ثورة كنت أحلم بخلقها ذات يوم.

أمي التي لا ترفض لأبي أمرا أبدا كانت تحيّرني، وكذلك أختي حين تزوّجت وأصبحتْ نسخة طبق الخنوع والخضوع من أمي، وكثير من النساء من حولي، أكاد أنفجر وأنا أراهنّ وديعات، مستكينات، خافضات الرؤوس، مسبلات النظر، مستعدات دائما للتنفيذ دون نقاش

كنت أتساءل.. كيف أقوم بأمر لا أرغب القيام به؟ وكيف لا يكون لي الخيار المطلق وفي كل أفعالي ودائما؟

الصوت في رأسي يقرّر.. أنت لست أمك ولست أختك ولست أية امرأة أخرى.. نعم.. أنا هي أنا.. حرة ولا أحد له سلطة عليّ.. لا أحد يمكنه امتلاكي فأنا ملك نفسي.. أنا لست لأحد ولا أأتمر إلا بأمر نفسي، ولا أذعن سوى لخياراتي وإرادتي

ولم يكن شبشب أمي في طفولتي وهو يلهب جسدي حين أرفض أمرا ما، ليطفئ تعنّتي.. بالعكس، كان يوقد في داخلي أيّة شعلة للرفض تكاد تخبو.

العقاب لم يكن يجدي معي.وكلما كان العقاب أقسى كان عنادي أشدّ ورفضي أكبر.

أتمرّد على ما حولي ومن حولي فأعاقب، ثم أتمرّد على العقاب ذاته فأعاقب من جديد، وهكذا قضيت من عمري سنوات رهينة العناد، حبيسة دائرة مغلقة من التمرّد والعقاب.

ودخلت الجامعة.

فتحت لي الجامعة باب الحرية على مصراعيه. وجدت فيها سماءً أوسع لأجنحتي وفضاءً شاسعا لممارسة عنادي.

ما من منظمة طلابيّة فاعلة إلاّ وانتسبت إليها، ما من جمعية عن الحقوق والمطالب إلا وشاركت فيها، وما من مظاهرة تشجّب أو تندّد أو تطالب إلاّ وخرجت فيها، محمولة على الأكتاف، أردد بأعلى صوتي شعارات الرفض والتغيير.

وهكذا..

ظلّت «لا» واقفة، مستقيمة ..ترفض الانحناء..

وظلّت الحكاية «الثورة» التي كنت أرغب في تدوينها ولو بأظافري على الصخر، تراودني في يقظتي ومنامي .

ظلّت «لا»وفيّة لي وأنا وفية لها إلى أن وضعتُ قدمي على عتبة عامي الرابع والعشرين ..

لم أنتبه إلا وزائر خطير يشقّ صدري بعنفٍ لذيذ، يجلسُ فوق قلبي ويدلدلُ ساقيه .

ألفْ لامْ حاءْ باءْ ..ذلك الجنون!

قال الحب بحزمٍ ستزوّج في نهاية شهر يونيو وقلت نعم .

قال الحب برجاءٍ سنقيم مع والدتي إلى حين يكون لنا مسكن مستقل.. وقلت نعم.

اعتدل الحب في جلسته .صوّب نحوي فوهتي حائه وبائه، وقال بثقةٍ: أنتِ لي

وقلتُ نعم.. نعم.. نعم.

الغرفة رقم 01:

خطوات فقط تفصلني عن باب الدخول، بينما أكثر من ربع قرن من الزمن تمتد بيني وبين السنين الأربعة عشرة التي عشتها في هذا المكان.

عشتها؟ هل قلتُ عشتها؟ عفوا كنت أقصد عشتُ فيها موتي.

سرت بمحاذاة السور بخطىً بطيئة. توقّفت عند البوابة الحديدية الضخمة. رفعت رأسي صوب الطابق الثاني.. ماذا لو أن للأماكن ذاكرة؟ ماذا كانت ستروي عنا؟ وبأية صورة سوف ترانا؟

نغادر الأماكن ولا نحمل في حقائب الذكرى سوى القليل من ملامحها والتي تبهت بمرور الأيام، بينما تحتفظ هي بنا.. نجدنا فيها، كلما جاء ذكر اسمها أو ارتسمت في خيالنا خرائطها، أو حملتنا خطانا، مرة أخرى، إليها.

أكيد أنّ الغرفة رقم 01 لا تزال في ذلك الطابق، في نهاية الرواق.. بنفس مقاسات الطول والعرض. ربما تغيّرت فيها بعض التفاصيل فقط... الطلاء أو الأثاث أو اتجاه الأسرّة والطاولة والخزائن لكنّها تحتفظ بي أكيد. لعلّ جدرانها الباردة ما تزال تلتحف دموعي وابتساماتي، و زواياها الصامتة تروي تفاصيل أيامي ولياليّ، وذرات هوائها يتراقص فيها رنين ضحكاتي وهواجسي وأحلامي.

من هنا أستطيع رؤية نافذتها المستطيلة، المطلّة على الشارع الرئيس المزدوج، حيث كنت أقف لساعات في محاولة يائسة لاستنطاق السماء والسحاب والطريق والرصيف والمارّة وأعمدة الإنارة، في محاولة تقبّل ذاتي والبحث عن أجوبة مقنعة لأسئلتي الحارقة المدبّبة.

ما إن لمحتني مديرة الميتم قادمة حتى هبّت لاستقبالي، مرحّبة، باسمة.

كنت قد التقيت بها صدفة في حفلٍ خيري، وقبل أيام هاتفتها أعلمها برغبتي في زيارة الميتم وبالتحديد الغرفة رقم 01 وكنت قد تبرّعت لها بمبلغ مالي محترم، وأعربت عن نيّتي في مساعدة الميتم ماديا والتكفّل بكل مصاريف المناسبات والأعياد .

-محمود.. تعال.. رافق السيدة إلى الغرفة رقم 01.

قالت مشيرة إلى حارس عجوز يجلس في مدخل الرواق.

بقيتُ لثوان متسمّرة. ثم انتبهت.

آه.. «السيدة» هي أنا..

وكأنّك لم تصدّقي بعد إنّك «السيدة».. حصلت عليها تلك الوثيقة منذ سنوات، انظري داخل حقيبة يدك الآن لتتأكّدي لو أردت.. ورقة لا تعني شيئا للعالم وهي كل عالمك، وريقة تافهة رثّة باستطاعة قطرة ماء أن تمحو حروفها أو رياح خفيفة أن تذروها إلى ما وراء الشمس.. ورقة بلا حياة هي كل حياتك، ورقة استطاعت أن تزيح ضباب الغبش عن صورتك في مرآة ذاتك، أن تزيل وصمة العار التي حفرتها السنين في جبينك فلم تعودي مجبرة على خفض رأسك وغرس نظرتك في الأرض حين يقابلك السؤال من أنت؟ أو ما اسمك؟.

ورقة صغيرة استطاعت لملمة أربعة عشرة سنة من روحك المبعثرة.

لكن ماذا يبقى لك منك حين تقضي نصف عمرك هائما في رحلة بحث عن ذاتك، تائها في صحراء الأسئلة، مشرّدا بلا دليل، متسوّلا الحقيقة على أرصفة الأحزان؟.

سرتُ خلف العجوز الأشمط وقد كرهته من أول نظرة إلى وجهه. ذكّرني حاجباه بزوج «خالتي أنيسة»، المرأة الطيبة التي تبنّتني قبل أن أدخل الميتم.. حاجبان كثيفان بدرجة تلفت الانتباه، أشيبان ملتصقان في الوسط.. لو أنّ للشيطان حواجب لكانت مثل تلك تماما..أشعر بالتقزّز وبرغبة في التقيّؤ كلما قفزت أمامي ملامحه البشعة.. ويده الخشنة التي كنت أرى الموت يطوف بي كلما طافت بأظافرها الغليظة الوسخة فوق براءتي.

obeikan.com

سنون طويلة انقضت على مغادرتي المكان.. ولقد تعلّمت في غمرة الأيام المتلاحقة بأنّ كل شيء يمضي، يأخذ وقته ويمضي.. الحزن، الفرح، الألم، البكاء، الغضب، الحنق، الحقد، وبأنّ المشاعر مثل المواسم، تأتي بما لها وما عليها ثم تغادر.. إلا الإحساس بالضياع، لا نتحرّر منه تماما مهما مرّ من الزمن، إلا الشعور بالخوف لا تمحى آثاره مهما تهيأ لنا ذلك.

المشكلة مع الخوف أنه حتى حين يتبدّد تماما ولا تعود تخاف شيئا، فإنك تخاف ضياع الأمان والسقوط في بئر الخوف من جديد.

ذلك ما حدث معي حين دخلت الغرفة. شعرت بالخوف من..الخوف

وجدت طعما مرّا عالقا بحلقي وأحسست في صدري جهة اليسار وخزا يشبه الخدر المؤلم.

وكأنّ الغرفة ما تزال تسكنُني رغم مرور كل تلك السنوات. وكأنّ الخوف لم يغادر.

بعض الأماكن تصبح جزءاً منا، تلتصق بتاريخنا.. فيها ينسج القدر أطول فصول مآسينا وفيها يكتب أقسى أجزاء ذاكرتنا.

تقتسم الغرفة فتيات ثلاث.. وحيدة ونوارة ورفيقة.. في نفس السن تقريبا إلا أنّ وحيدة تبدو أصغر بوجهها المستدير الطفولي وضفيرة شعرها الأسود الكثيف .لا أدري لمَ أحسست بأنها تشبهني.. حتى أنها تشغل نفس الجهة في

الغرفة، نفس السرير الذي كان لي وبجانبه طاولة صغيرة تراكمت فوقها كتب ومجلات.

يبدو إنها مثلي تعشق المطالعة.

مر تيار المودة بيني وبين الفتيات بيسر وسرعة عجيبة.حكت لي كل واحدة شذرة من حياتها أو بالأحرى مأساتها.

ثلاثة أرواح اختلفن في النشأة والمصير واشتركن في الحزن والضياع والألم.

رفيقة قالت لي «أنا أجدُّ في المدرسة، أريد أن أكون مدرّسة».

نوّارة أسهبت في التعبير عن طموحها بأن تسافر وتدور العالم وتصبح عارضة أزياء..!

أما وحيدة فتردّد بنبرة تقطر حزنا «لا أريد شيئا من الدنيا.. فقط أن أعرف من يكون أبواي ولماذا تخلّيا عني».

مثلك أنا يا صغيرتي، يوم كنت هنا. كان ذلك همّي الوحيد.. ولكن لا تحزني فللأقدار خرجات لا يحتويها منطق ولا يدركها عقل.. لو أن الموت لم يمهل جدّتي لأبي يومين فقط لماتت حقيقتي إلى الأبد، ولو أنّ قريب أبي العجوز لم يجتهد في البحث عني ولم يتصل بي ليخبرني بأن حقيقتي وحياتي ووجودي في ورقة مطوية داخل ثياب جدتي لما كنت اليوم على ما أنا عليه ولقضيت عمري بلا هوية ولا نسب ولا روح.

لم أشعر بالوقت يمر .ثرثرت مع الفتيات في أمور عديدة .كنت أغالب حزني كي لا تفتح الغرفة في قلبي وروحي جراحا التأمت. استطعت في وقت قليل أن أكسب ثقة البنات

وميلهن، ربما لأني أخبرتهن بأني ذات زمن كنت هنا، مثلهن، وكان هنا أيضا ذلك الشعور بالغربة والتيه والحزن، وبأنّ كل ذلك لا وجود له الآن.

أحببت أن أحقن قلوبهن البائسة بشيء من الأمل والفرح.

لا أحد يدري ما تخبّئه الأقدار والأماني الجميلة تتحقق أيضا.

كانت بي رغبة شديدة في أن لا يتوقفن عن الكلام ولا أتوقف عن الاستماع إليهن.

كنت أريد أن أحضنهنّ وأبكي، لساعات، لأيام، لشهور.

قبل أن أغادر، ضممتهن إلى صدري وهمست «انتبهن لأنفسكن.. سأزوركنّ من حين لآخر..لا تسمحن لـ (حواجب الشيطان) بأن يقترب منكنّ».

أكيد لم يفهمن، ولكن شيء ما لحظتها جعلني أعتقد بأنهنّ فهمنني وعرفن ماذا أعني ومن أعني بالضبط. عبرت الشارع. ركبت سيارتي وانطلقت.

رباه.. ماذا سيكون مصير «نوّارة» و«رفيقة» و«وحيدة» والأخريات في الغرف الأخرى؟ هل سينجون؟ هل ستكون الحياة يوما ما أكثر لطفا بهن؟

ابتلعت أسئلتي جميعها وأنا أفكّر: ما جدوى الأسئلة إذا كانت الأجوبة نفسها بلا جدوى .

obeikan.com

بلّغني أيّها الشّعب السّعيد

في مملكة الملك «سعيد جذلان الثاني» كان الجميع سعداء.. النساء، الرجال، الأطفال، العجائز، الفقراء، الأغنياء، الأصحاء، المرضى، المجانين، الحكماء.. كلّهم كانوا سعداء.

المملكة نفسها كان اسمها «مملكة السعادة».. وكان الملك، منذ تولّيه العرش، بعد وفاة والده الملك «جذلان بن مسرور الأول» قد جهّز كل بيت في المملكة بمرآة. لم تكن مرآة عادية. كانت مرآة عجيبة، سحرية.. حين ينظر فيها أهل المملكة تزول همومهم ومشاكلهم وتتبخّر أيّة فكرة تراودهم عن الثورة والحرية والحق والعزّة والكرامة، مجرّد النظر فيها يدخلهم في حالة من النشوة والهدوء والسعادة فيمضون في حياتهم فرحين مستبشرين، وينطلقون إلى أعمالهم ومشاغلهم اليومية صامتين مبتسمين، هانئين راضين.. مكتفين بالنزر القليل الذي يجود به عليهم الملك في نهاية كل شهر من مدخول أراضيهم الزراعية الخصبة الشاسعة الممتدة بطول المملكة وعرضها، والتي كان الملك ووزراؤه يستولون على محاصيلها من تمور وحوامض وأعناب وقمح وذرة دون أن يجرؤ أحد أبدا على الاعتراض أو الشكوى أو التذمّر.

obeikan.com

ولماذا يتذمّرون ؟ لقد كانوا سعداء.

وكان الملك، في كل يوم جمعة، يخرج إلى الناس ويخطب فيهم، خطبا رنّانة، عن السعادة والاستقرار، عن القناعة التي لا تفنى، عن ضرورة الولاء للملك وحاشيته، عن نعمة السكوت الذي هو من ذهب.. نفس الخطب يختمها دائما بنفس الأوامر (لكي تظلّوا سعداء يجب أن تحافظوا على مراياكم وأن تنظروا فيها مرتين في اليوم: صباحا مع طلوع الفجر ومساء قبل أن تخلدوا إلى النوم.. ومن يخالف أوامري ستصبّ عليه اللعنة ويصبح شقيا بائسا، ويندم ولا ينفعه الندم).

وحين ينهي الملك خطبته يسأل الرعية بصوته الجهوري: هل أنتم سعداء؟ فيردّ الجميع بصوت واحد: نعم.. أيها الملك السعيد.. نحن سعداء.

وهكذا استمرت الحياة السعيدة في المملكة السعيدة لأعوام عديدة إلى أن كان يوم.

علم الملك بأنّ أحد الرعايا يدور في السوق ويردّد بأنّه غير سعيد. اغتاظ الملك وتسلّل الرعب إلى قلبه، خشي أن يصاب شعبه بالعدوى من ذلك الرجل لكنه قال في نفسه.. هو رجل واحد فقط، لن يؤثّر في البقية.. سوف أرى في أمره، إما أن أصلح مرآته أو أعزله عن الرعية.

Obeikan.com

دعا الملك إليه فريقا من الحراس.. قال لهم آمرا:

انتشروا في المملكة وأتوني بالرجل فورا.

وفي أقل من لمح البصر، جيء بالرجل موثوق اليدين.. وأوقف أمام الملك.

- ما اسمك؟.

- سعدان بن فرحان.

- أخبرني يا سعدان.. لماذا لست سعيدا؟

- لأني لست سعيدا.

قال سعدان وصوته يرتجف.

قال الملك غاضبا:

- أتسخر منّي؟ أسألك فتجيبني بسؤالي؟

- عفوا مولاي. لم أعرف كيف أجيبك .أعتقد بأنّي لست سعيدا لأني بدأت أفكّر.

«مشكلة حقا».. همس الملك في أذن مستشاره «الرجل يفكّر».

- هل خالفت أوامري وتجنّبت النظر في مرآتك؟

- لا.. لم أفعل مولاي.. كنت مداوما كما أمرتَ على النظر فيها.

- ما المشكلة إذا؟

obeikan.com

- منذ يومين، نظرت في المرآة فإذا بها خدوش عميقة.. ولأول مرّة لم أستطع رؤية السعادة ووجدتني أفكّر في أمر أرضي وحدائقي وضِيَعي التي هي تحت يديك.

- من تجرأ وخرّب المرآة؟ أخبرني حالا وإلا قطعت رأسك.

- لا علم لي يا مولاي.

فكّر الملك مليّا ثم قرّر أن يرافق الرجل إلى منزله لكي يعاين بنفسه المرآة ويرى ما يمكن فعله.

في الطريق صادف الملك رجلا آخر مصابا بنفس الفيروس ..إنّه يفكّر، ومرآته بها نفس المشكلة.. خدوش عميقة. ازدادت حيرة الملك لكنه قال في نفسه.. بسيطة.. رجلان فقط. يمكنني تدبّر الأمر.

لكن الملك التقى برجل ثالث. نفس المشكلة.. ثم رابع.. ثم امرأة في ربيع العمر، ثم عجوز في خريف العمر.

وأسقط في يد الملك. راح يفكّر.. هل يسارع إلى تصليح المرايا المشروخة أم يبحث في سبب تلفها ويقتل من تسبّب في ذلك؟

ولكن، قبل أن يستقر الملك على رأي، كان أكثر من نصف الرعية قد تجمهروا حوله يشتكون بؤسهم وهوانهم، ويهتفون بصوت رجل واحد.. «لتسقط المرايا الكاذبة»!

obeikan.com

سمكة الاكواريوم السمراء

شربت قهوتي على عجل. ارتديت ثيابي وخرجت... شاغبت سمكتي مبتسمة.. «إلى اللقاء يا صغيرتي.. أنت هنا في مأمن.. لو كنتِ في البحر لأكلتك الأسماك الكبيرة» هدية أختي مروى في عيد ميلادي.خيّرتني بين عصفور وسمكة فاخترت السمكة.. «أحب العصافير لكن خارج الأقفاص» قلت لها «ألن تكون السمكة في قفص مائيّ ؟» قالت . «نعم «قلت»..لكنها سمكة صغيرة جدا.. لن تدرك سجنها.. ستعتقد بأنّ الاكواريوم بحر»

كان الجو مشمسا ودافئا، مع أنّه الشتاء. كأنّه يوم ربيعيّ خائنٌ فرّ من فصله. ثمة كآبة في الأفق.. لكني تشجّعت.. وغلّقت في وجهها نوافذ القلب. قررت قضاء يومي خارجا. لن أشغل بالي بشيء لابد من منح الدماغ إجازة.. كما نمنحها للجسد.. يوم على الأقل في الأسبوع.. لن أفكر بشيء.. في هذا الزمن الصاخب السريع أصبح التفكير بذخا، رفاهة لم تعد تناسبني راتبي الشهري داخل حقيبة يدي .. أقصد ما بقيَ منه. لم تكن لدي فكرة محدّدة عما سأفعل به.. ربما سأشتري معطفا. أحب المعاطف الأنيقة الفخمة.. ليس لأنها تحميني من البرد فقط بل من الإحساس بالخيبة أيضا.

سحتُ في الشارع المزدحم، دسست جسدي بين البشر محاولة جهدي تفادي الاصطدام.كل شيء مبالغٌ في حضوره..

obeikan.com

الضجيج والسيارات والراجلين والمحلاّت والنساء والباعة المتجوّلون والمتسوّلون.

تساءلت لوهلة كيف ستبدو اللوحة لو أنّ عصا سحرية تمتد من السماء وبحركة واحدة تجمّد الحياة في الشارع.. ستبدو كقطعة فسيفساء غريبة ومتناقضة ومثيرة للضحك. الكل يبيع والكل يشترى..البعض يتحدث في الهاتف المحمول.. بصوت مرتفع أكثر مما ينبغي. لم يعد غريبا وأنا أمشّط الشارع بخطواتي أن أكون شاهدة آذان على شجار بين زوجين أو صفقة تعقد بين طرفين أو حديث حب بين عشيقين أو اتّفاق على موعد بين مراهقين.

تذكرت أختي مروى .كانت تقول لي.. أصبحنا نعيش في العراء، التكنولوجيا أطارت بآخر ورقة توت كانت تسترنا.. ..لم يبق يا أختي إلا أن نمشي في الشارع كما ولدتنا أمهاتنا.

تخيّلت المنظر، فابتسمت، ولعل بائع الملابس النسائية الداخلية الذي يعرض بضاعته على الرصيف، ظنّ أنّي أبتسم له، وربما رآني بخياله أرفل في إحدى المنامات الشفافة.

لم يكن النهار قد انتصف بعد عندما شعرت بالجوع. قصدت أوّل مطعم صادفني. ليس فخما لكن يبدو نظيفا ومرتّبا.. لم أره من قبل في هذا المكان.. المطاعم تنمو كالطحالب في كل أنحاء المدينة.

المقاهي أيضا.. والمجانين.

طلبت طبق أرز بالدجاج .أحب الأرز ولا أجيد طبخه.. حاولت مرارا.. وفي كل مرّة إمّا يكون غير ناضج تماما أو ناضجا أكثر من اللازم.. تحضير الأرز يحتاج مهارة. مثل التفكير. لابد أن تكون الفكرة مستويةَ بدقّة. كل الخطورة تأتي من الأفكار النّيْئة.. تصيبنا بمغص فكري.

في جو المطعم تسبح أغنية رومانسية تعود إلى السبعينيات لمغنّي فرنسي. سرت في قلبي قشعريرة حنين...ما كدت أبدأ الأكل وفكري سارح مع الأغنية، حتى رأيتها تقف بالباب.. امرأة بلون الحنطة، رشيقة، طويلة القامة والعنق، مشدودة الظهر.. جميلة رغم مظهرها المزري وحجم البؤس المعشّش في عينيها.. في حياة أخرى وبيد قدر آخر كانت لتكون عارضة أزياء مغرية ومشهورة.. وقعت عيني على قدميها.. كانت تنتعل شيئا يدعى زورا «حذاء».. شعرت بغصة وقفزت أمامي صورة مذيعة ظهرت على النت منذ أيام بحذاء مرصّع بالألماس.. كانت بي رغبة في البكاء لكني تماسكت.. نظرت حولي.. لا أحد حرّك ساكنا لمرآها.. لا صاحب المطعم، ولا مساعده ولا الرجل المحترم الذي .لا أحد بدا أنّه يهتم. هؤلاء الماليات، الهاربات من الموت والجوع، أصبحن جزءا من ملامح المدينة، قطعة من ديكور الشارع.. صار منظرهنّ

مألوفا كأنّهن وجدن في الأصل في هذه المدينة.. منذ أيام استغربت صديقتي كيف تستطيع فتاة ضعيفة البنية حمل حزمة ضخمة من الثياب فوق رأسها والسير مستقيمة تماما.. كنت أقول لها.. كيف يعجز عن حمل حزمة من القماش من يحمل أطنان التشرّد والغربة والمذلّة.

تقدّمت مني المرأة. أكيد شجّعتها نظرتي لها المشبعة بالشفقة.. كان بيدها إناءٌ من الالومنيوم الصدئ.. شعرت فجأة بالشبع وبخز إبر في معدتي، وبكرهي الشديد للأرز وللرجل صاحب ربطة العنق المخططة ولصاحب المطعم.. وللحياة كلها.. حتى الأغنية العاطفية الرقيقة بدت لي موالا حزينا.

طلبت منها أن تقترب. أفرغت محتوي صحني في إنائها.. ثم أخرجت من حقيبة يدي بضعة وريقات دون أن أعدّها ودسستها في كفّها المتيبّسة.. شكرتني بإيماءة وغادرت المطعم تتبعها ابنتها.. طفلة في الثامنة تقريبا.. ترتدي أسمالا لا تكاد تغطّي جسدها النحيل.. جميلة جدا رغم بشرتها القاتمة السمرة.

صرخت بأعلى صمتي.. يا الهي لمَ كل هذا البؤس على الأرض؟

ورأيت الكآبة، التي أغلقت عليها النوافذ والأبواب، تسقط بكل ثقلها في روحي.

بعد ساعات من التسكّع وأنا راجعة للبيت رأيتها.. هي نفسها، طفلة المطعم.. تقف غير بعيد عن والدتها أمام محل بيع اللعب، وقد ألصقت جبينها وأنفها بالواجهة الزجاجية.

اقتربت منها .كانت ذاهلة، تحدّق في دمية «باربي» .. سألتها. «تعجبك الدمية؟».. لا أدري لمَ ظننت بأنها ستفهم عليّ. التفتت صوبي. حدّقت في وجهي ولم ترد.. بدت لي عيناها كعيني سمكتي الحمراء في الاكواريوم.. النظرة نفسها.. باردة ومدبّبة لكن نافذة وجميلة.. كان فيها بريق أخّاذ.وفكّرت وأنا أقلّب عينيّ بينها وبين الشارع المجنون.. يا إلهي.. لو أستطيع أن أحميها من أسماك القرش الكبيرة.

«تعجبك ؟ تريدينها؟» سألتها وأنا أشير برأسي إلى الدمية في الواجهة مستعينة بتعابير وجهي وحركة يدي لكي أوصل لها المعنى.. هزّت رأسها بالإيجاب وقد اتّسعت نظرتها حتى خيّل إلي أنها ستبتلع الشارع وتبلعني «انتظريني هنا». أكّدتُ عليها وأنا أهزّها برفق من كتفها. دلفتُ المحل مسرعة ..دفعت ثمن الدمية دون أن أفكّر وهرولت نحوها، دسستها لها تحت ابطها وأشرت لها بأن تلحق بوالدتها.. ووقفت أمام المحل مسمّرة أشيّعها بنظرتي، بينما ظلّت هي تلتفت نحوي وتبتسم إلى أن واراها الزحام.

«حاذري من الأسماك الكبيرة» سمعت صوتا بداخلي يصرخ بها.

في البيت حين فتحت حقيبتي كي أخرج هاتفي النقال لم يكن فيها مال، لكني رأيت سربا من ابتسامات طفولية تنتشر في سماء غرفتي الباردة.

obeikan.com

ظلٌّ يخترقُ الضباب

- هذه الممرّضة لطيفة جدا. ما اسمها؟

- ليست الممرّضة. إنّها ابنتنا ليس.

كرّر السؤال مرات عديدة، في ذلك الأسبوع الأخير، وفي كل مرّة تكرّر زوجته فاطمة نفس الإجابة.

ويسقط الصمت من جديد في الغرفة.

لا أن يبدو أنّه فهم حقا ماذا تقصد بقولها ابنتنا.

ليس؟ ليس.. لام ميم ياء سين.. الحروف الأربع تحاول الولوج إلى عالمه المقفر، تطوف حول ذاكرته المهشّمة كفراشات تائهة، ثم تعود القهقرى لتصطدم بالفراغ. لا شيء.لا شيء أبدا.فقط، لوهلة قصيرة الأمد كومضة برق، يتهيأ له أنّه يرى فتاة صغيرة بعمر العاشرة، عيناها خضراوان وبشرتها شديدة البياض، تبتسم له برقّة، ولكن سرعان ما تنقشع الصورة كأنّها لم تكن.. يستدير بوجهه، نحو الحائط المقابل لسريره ..تقع نظرته على لوحة.. مزهرية جميلة بها أزهار ملوّنة.. لكنه في الحقيقة لا يرى سوى خربشة مبهمة وألوان متداخلة، ولا يدري إذا كان في اللوحة أزهار أم أحجار أم شيء آخر لا يدري كنهه.

obeikan.com

تبادل لميس والدتها نظرةً حزينة. عيناها الخضراوان مغرورقتان بالأسى. توقّع الجميع ذلك.. أنّ يصل المرض إلى ذروته.. أن تكتمل دائرة النسيان التي تشكّلت أولى حلقاتها منذ عشر سنوات خلت. لكن ألاّ يتعرّف عليها هي بالذات.. حبيبة قلب أبيها وآخر العنقود وأميرته المدلّلة..أن تُمحى من ذاكرته كل سنواتهما معا، بهجة ولادتها بعد أربعة ذكور.. » «أنت هدية الله من السماء.. أنت بأخوتك الأربع» كان يقول لها دائما

تهزّ صدر لميس رغبة قويّة في البكاء لكنّها تتماسك.

- ماما.. يمكنك أن ترتاحي.. سأبقى معه إلى المساء.

تقوم أم لميس من مكانها المعتاد. يبدو كأنّها تذكّرت أمرا.. تتّجه نحو الدولاب.

- نعم. سأذهب. لكن عليك أن تقرأي هذا.

تمسك لميس الدفتر من والدتها بيسراها بينما يمناها تحتضن يد والدها الباردة. تنظر إليه بحنان.

لا يزال يحدّق فيها وقد قطّب جبينا حرثته التجاعيد وزمّ شفتين رقيقتين مزرقّتين .لا يحيد بنظرته عن وجهها حتى بدا لها أنّ أجفانه لا ترفّ نظرته فارغة تماما، خالية من كلّ بريق، من أيّ معنى.

obeikan.com

التاريخ المدوّن على الصفحة الأولى من الدفتر يعود إلى سنوات.. والخط خط والدها.. مائل قليلا والسين، كما عادته في كتابتها، بلا أسنان.

تحسّ لميس بأنّ قلبها يذوب بين ضلوعها.

زوجتي العزيزة سعاد

احتفظي جيّدا بهذا الدفتر. حذاري أن تضيّعيه .ستحتاجينه في الوقت المناسب .سأدوّن فيه الآن بعض الأمور الهامة المتعلّقة بي وبكم وبحياتكم بعد رحيلي. إن لم أفعل الآن لن يكون بمقدوري في يوم آخر. ستكون بطارية دماغي قد فرغت تماما.. وذاكرتي قد يبست واصفرّت كشجيرة في الصحراء.

أنا أعرف مصيري .قرأت عن هذا المرض. إنني آيل للخراب .أتآكل تدريجيا كورقة في فم دودة نهمة.. رغم ذلك إنّه مرض رحيم، ألا تعتقدين؟ واضح وصريح.. رسم منذ البداية خريطة الطريق.. أمسك بتلابيب دماغي وها هو يمضي بي نحو مصير معلوم، وأنا أطيعه في كل شيء، أتبعه مثل كلب وفيّ، وأعلم بأنّي في نهاية المطاف سوف لن أعلم من بعد علمي شيئا.. هذا المرض سوف يعرّيني مني تدريجيا. سأفقدُني وأفقدكم جميعا .أنسلخ منّي كما ينسلخ من جلده الثعبان. سوف ذاكرتي تقطر صورةً صورة واسما اسما، ببطء في بادئ الأمر ثم بسرعة.. و

obeikan.com

لن يبق منّي في الأخير سوى ظلّي سابحا في ضباب كثيف. يومها لن أكون أنا وبالطبع لن أستطيع أن أقول لكم ما يمكن أن أقوله الآن.

لن أستطيع أن أقول لكم شكرا.. أنت ولميس ولؤي وحسن وكل العائلة والأصحاب، ولن أقدر أن أقول لكم بأنّي أحبكم، لأنّكم ستكونون غرباء عني.

لا أحد يقول أحبك لشخص غريب أليس كذلك؟

اسمعيني.. يمكنكم أن تضعوني بدارٍ للمسنّين إذا شقّ عليكم الاهتمام بي . لا يهمّني. بكل الأحوال لن أتذكّر من كنت ولا كيف كنت لكي أشعر بالحزن لما سيكون.. لعل هنا النعمة الوحيدة لهذا المرض.

أمر آخر.. يمكنكم التبرّع بأعضائي، إذا كانت جيّدة طبعا .قلبي أو كليتي أو كبدي. جوف الأرض ليس بحاجة لمزيد من الأعضاء.. ما الأفضل في رأيك؟ أن ينبض قلبك في صدر شخص آخر أو أن يكون وجبة دسمة لمعشر الديدان؟.. ذاكرتي فقط لا أنصحك بالتبرع بها لأحد.. من الذي سيحتاج إلى ذاكرة معاقة؟ انتظري.. لعل هناك من سيحتاجها كذاكرة إضافية أو بديلة، للاستفادة منها في حالة الطوارئ.. مثلا حين تنشب حرب بين الذكريات فيضطر المرء لأن يهرّب أقربها إليه

وأجملها إلى سماء ذاكرة أخرى.. نعم، فكرة رائعة.. أترين؟ إنّني الآن بخير وما زلت أملك أفكارا عظيمة.. هذا المرض نفسه، كما تعلمين، لا يصيب سوى العظماء من أمثالي.. لا تضحكي واسمعيني جيدا ..ستجدين مع هذا الدفتر وصيّتي.. وكل ما يتعلّق بأمورنا المالية.. المدّخرات، وثيقة المحل، والبيت، قطعة الأرض التي في الضاحية الشرقية للمدينة.

اطلعي الأولاد على هذا الدفتر في الوقت المناسب.. تفهمين ما أعني بالوقت المناسب.. خاصة لميس.. في اليوم نفسه الذي لن أعرفها فيه، في اللحظة عينها، سلّميها هذا الدفتر وأخبريها بأني أحبها جدا.. جدا.

حين عادت فاطمة للغرفة، كان الصمت سيّد المشهد.. لميس لا تزال تمسك بالدفتر وتبكي.

- هذه الممرضة لطيفة جدا وحنون.. تقوم بعملها بإتقان.. اعطوها أجرها مضاعفا.

هذه المرة لم تردّد فاطمة «ليست الممرضة.. إنها ابنتنا لميس».

اكتفت بهز رأسها بحركة بطيئة يائسة وهي تقول بحزن: نعم سأفعل.

obeikan.com

الصوت

يجلدني بعنف ودون رحمة.

خيانة، وخطيئة، ومعصية.

لا تبحث عن لفظة أخرى.

هي خيانة يا سيّد الكلمات ومروّض اللغة الجموح.

يمكنك أن تكذب في نصوصك، أن تزيّف الحقائق وتخدع البشر.

أن تجعل الفاسق يبدو في ثوب قدّيس مثلا، لكنك لا تخدعني.

أنا الوحيد الذي يراك بوضوح.

أخبرني، هل يمكن تسمية الأمور بغير أسمائها؟

هل يصبح الليل نهارا لو يّتفق الكون على تسميته نهارا؟

لا يصبح الليل نهارا مهما خلعنا عليه من ألقاب.

ولا الوهم حقيقة، ولا الجنون تعقّلا.

ولا الافتراض واقعا.

- اخرس.. أنا أحبها.

- أنت واهم.

أشيح بوجهي.. أنظر يمنة ويسرى.. أحاول الانشغال بمراقبة روّاد الحديقة في هذه الأمسية الربيعية الجميلة.

تتواصل التكتكة المستمرة المزعجة، وخز حاد في العمق كمن يدقّ مسمارا في وسط رأسك.

obeikan.com

كمن يرمي بحجر في بركة وعيك الراكدة وكلّما ركدت البركة يعيد الكرّة من جديد.. دون هوادة.

أدرك ألاعيبه. طريقته في الالتفاف حول رأسي ونفث سمومه في أفكاري.

لا يهدأ، لا يأخذ استراحة.. لا يغفل كأن لا شغل له إلاّي.

لعلّ لا شغل له إلاي فعلا.

أحاول صرف تفكيري عنه.

أفكِّر فيها.. حبيبتي، فاتنتي، قصيدتي الأبهى، أنثاي الأشهى.

دقائق وتكون هنا، معي.

المشاعر الفيّاضة الملتهبة حبا وشوقا وحنينا والتي جمعتنا افتراضيا لمدّة طويلة لا يمكن أن تضيع.

منطقيٌّ أن ينتهي الأمر بلقائنا فوق سطح الواقع.

أن يتوّج امتزاج روحينا بانصهار الجسدين.

مجرّد التفكير في لقائي بها ومكان يجمعنا معا، بمفردنا، يحيل كياني إلى كرة من نار.

يبعث في أدقّ شراييني تيارات الحب والرغبة.. يغلق كل أبواب عقلي.

أحاول صرف تفكيري عنه.. عبثا أفعل.

- تفكّر؟.. تبحث في عقلك الباطن عن تبرير للخيانة؟

- أعشق تفاصيلها، دوّختني أنوثتها.

- حرير الوهم.

- أحييت قلبا قتله الملل والروتين.

- أحابيل الخيال.

- أدخلتني مدن العشق والجنون، اكتشفت بأني لم أعش قبلها.

- كأنّي سمعتها هذه الكلمات منذ سنوات تقولها عن زوجتك.

نعم.. زوجتي أحسست برجفة في صدري وأنا أحمل حقيبتي الصغيرة وأغادر بعد أن أخبرتها أني ذاهب في مهمة عمل تدوم يومين. و

أوّل كذبة. أوّل نقطة حبر على نافذة زواجنا الذي يدخل هذه السنة عامه الحادي عشر.

- ما بها زوجتي؟ أعطيها حقوقها وأكثر.. من حقّ قلبي أن يخفق من جديد، لست غبيا لكي أصمّ أذنيّ عن نداء الحب.

- أنت تهضم أهم حقوقها.. حقها في الوفاء.

- لكني أحب حبيبتي.. حدّ الجنون. أحبّها.

- دغدغة الرغبة المجنونة.

- أعشقها.

- يتهيّأ لك

- مثيرة ورائعة.

- فخ الخطيئة الأولى.

obeikan.com

- مختلفة واستثنائية.

- خدعة اللذة المحرّمة.

أغرب عن وجهي..أغرب عن وجهي.

نظرت في ساعتي. عشر دقائق وتكون هنا.

- سمير.. قلت لك ألا تلعب بالكرة هنا!!

في نفس اللحظة التي وصلت سمعي هذه العبارة كانت الكرة تضرب حقيبتي بعنف.

التقطها الصبي. اعتذر بأدب. وراح يجري لحضن والدته.

الوالد والوالدة يتبادلان الحديث والضحكات والابن ممسكا بالكرة يحاذيهما سيرا.

ودون أن أفكّر وقفت. حملت حلمي المهشّم في الحقيبة وغادرت الحديقة.

سرت بضع خطوات ثم اتصلت بزوجتي: «لقد ألغوا المهمة..أنا راجع إلى البيت.

وضّبي نفسك سنخرج في نزهة مع الأولاد»

عند انعطاف الزقاق، التفتّ.. ورأيتها، بكامل فتنتها، تدخل الحديقة.

ورأيتُني، فارسا يمتطي جوادا منكّس الهامة، يغادر ساحة الحب قبل بدء المواجهة.

كان في ركابي طيفٌ يلعنني بصمت وخلفي صوت يتمطى بارتياح.

obeikan.com

سر الفراشة الحزينة

تمتمت بالسلام وظلّت واقفة مكانه تنتظر أن أأذن لها بالجلوس.

شاحبة، ملامحها تشي بآثار مأساة منتهية لتوّها أو.. زوبعة آتية.

كان فيها شيء من وردة صفعها البَرَد أو فراشة جميلة كرمش جناحها صبيّ شقي.

سنوات مهنتي علّمتني قراءة الوجوه.. قارئة ملامح أصبحت.

رأيت في نظرتها صرخة مكتومة، استجداءً أبكم.

في زرقة عينيها خوف كثيف يموج.

تتحدّث بصوت لا يكاد يسمع وحين تخفض رأسها وترخي أجفانها تتوزع الحيرة في المكان..

كانت أشهري الأولى في عملي بتلك الثانوية في المدينة الكبيرة .انتقلت إليها من قريتي البائسة أين كان يحلو للبعض أن يطلق عليّ لقب طبيبة المجانين.

حين جاءني قرار تحويلي إلى العمل في مؤسسة أخرى قبلت على الفور .. آمنت دائما بضرورة تلبية نداء المكان.. لم أكن من الذين يحبّون أن يكونوا دائما هنا أو دائما هناك.

قلت في نفسي ربما في تلك المدينة الكبيرة يكون الناس أكثر تفهّما لمهنة المرشدة النفسية.

غادرت الطالبة مكتبي في أول جلسة تاركة معول السؤال ينبش رأسي.

ما الذي يمكنه أن يثقل قلب فتاة يانعة في مثل سنّها؟

أخبرتني أستاذتها، التي هي من أقنعتْها بأن تتصل بي، أنّها غريبة الأطوار.. تشرد أثناء الدرس. تنظر في الفراغ. تقضم أظافرها وحين تزجرها تنتبه، تلتهب وجنتاها ، تخفض رأسها وتعتذر بأدب وبصوت مخنوق.

مرت شهور دون أن تصارحني الفتاة بشيء عدا انفصال والديها وأنها تعيش مع والدتها وأخيها الذي يكبرها بسنة.

والدها تزوج من أخرى وهجرهم.

- ماذا عن والدك ؟ كلّميني عنه.

- لا أراه إلا نادرا .لا أحس بأنّه أبي. أكرهه كل يوم أكثر.

لم أشأ الضغط عليها... لكني كنت واثقة أن في الأمر ما هو أخطر.

حين أخيرا كشفت السر أغرقني الذهول.

رسالة وضعتها فوق مكتبي في ثاني لقائي بها وأسرعت نحو الباب ناديت عليها فلم ترد.

فتحت الورقة. مسحت عيناي السطور . صعقت تزايد نبض قلبي.

obeikan.com

«أستاذتي ليس لي غيرك. أمي لم تعرف في الأول. لكني اضطررت أن أخبرها...بعد أن رأيت أخي يتمادى. لا أفهم لمَ يفعل ذلك.. أمي صفعتني أستاذتي.. أخي يهدّدني بافتعال فضيحة لي لو أخبرت أحدا.كرهت البيت أستاذتي. كرهت أخي. أفكر في الانتحار لكني أخشى على أمي من الحزن

لم أدر بمن ألوذ أستاذتي.. ليس لي غيرك. أنقذيني».

الكلمة الأخيرة عصفت بالبقية الباقية من عقلي.

في نهاية الأسبوع كنت أقف عند باب منزلها.

وحين فتحت لي والدتها وابتسمت مرحّبة أدركت حجم المهمة التي وضعها القدر على كاهلي.

Album

❖- الصورة الأولى:

أشم رائحة حب. أحس بما يسبق العاصفة. ما يشبه الجنون قادم. ما يشبه الضياع قادم. بمن ألوذ وأنت يا قلبي، مثل قدري، تقف ضدّي؟ لمن أمدّ يدي؟ حسبتُ أن السفينة رست بنا أخيرا على مرفأ اللاحب، حسبت أنّنا وصلنا إلي بر السكينة والأمان.

أما اتفقنا أنها الهدنة؟ أما عقدنا معاهدة وقف الجنون؟

لكنك مثل الزمان يا قلبي، متقلبٌ، لا عهد لك ولا أمانْ.

أنت تلميذ بليد لا يتعلم من أخطائه. ذاكرتك مثقوبة، تعود دائما من حيث بدأت ناسيا كل شيء.

يرعبني الإعصار فأغلق عليك الأبواب لكي أحميك من الريح، وأنت في غفلة مني تشرّع النوافذ فتصيبك نزلات الهوى وأحتار أنا فيك ومعك. يصيح بك العقل، يصرخ، يترجّى، يصفّر كشرطي مرور في زحمة سير، ولكنك تمضي في جنونك مثل سيل جارف، غير آبه لشيء، آخذا في طريقك كل شيء، العقل والمنطق والقوانين والمقاييس.

وتأخذني معك إلى حيث لا أدري ولا أنت تدري.

كانت الصورة تشير إلى الخوف وألف دقة.

❖- **الصورة الثانية:**

جعلتني أقف على شفا الجنون، ومع ذلك لن أغادر لأن حياتي الآن مساحة واحدة يملأها حبك ولأنّ أيّة حسابات ندم قد أعرفها يوما ستكون أنّني لم أحبك كما تستحق، وأنك لم تحبني كما حلمت.

إياك أن تنسى من أنت. فعلا، أنت الكل وأنا الجزء، أنت الأصل وأنا الصورة غير المطابقة، أنت العمر وأنا فيه جزء من الثانية، أنت المجلّد وأنا الفاصلة الصغيرة، أنت السنديانة وأنا الغصين الرفيع، أنت النخلة وأنا ظلها الباهت المشوه على الأرض.

أنت القصيدة وأنا نقطة في آخر بيت.

لكن..فقط لأنني أحبك.

الأمر كله بيدك حبيبي.المغامرة هواية الشجعان. إن قررت الإبحار فأنا معك، سأجعل من ذراعي مجدافك...ومن خصلات شعري أنسج عريشه تحميك من الشمس.

أتدري أنني مَدينة لك بكل عمري؟ لولاك ما عشت وهج الحب ونار الغيرة وعذابات الانتظار ولا روعة اللقاء.

لولا حبك ما كنت عرفت معنى الأرق والقلق ولا ذقت وخز الشك ولا وجع الحنين.

وما هو العمر إن لم يكن هذا كله؟

'سندريلا' أنا يا أميري, حبك انتشلني من رماد أيامي. لا يهمني أن ينتهي مفعول السحر حين تدق الساعة تمام منتصف الحب .لا يهمني لو أعود إلى حزني وذبولي وظلم أقداري لأنني سأعيش بقية حياتي على ذكرى حفلتي معك وفرحتي بك. سأدفئ شتاءاتي القادمة بلحظة استكنتُ فيها الى صدرك وأنت تراقصني وغرفت فيها من بحر عينيك وانتشيت بسحر كلماتك.

دعني أحبك كما تمنيت ..دعني أشرب بدلاً منك مرارة غربتك، وأغسل بدمعي أحزان منفاك، وأحمل عنك ثقل همومك. دعني أخترع من أجلك كلمات عشق أخرى لا تليق الاّ بك ولا يبهجها السفر إلا إليك

هذه أنا بكل اللهفة والحنين، بكل حب العمر، أقف على عتبة عمرك...هل ستفتح لي؟

هذه أنا أحمل في القلب زادا من العشق يكفينا معا حتى آخر نفس، هل ستقبل بي؟

فقط لأنني أحبك.

كانت الصورة تشير إلى تمام العشق.

❖- الصورة الثالثة:

لأنك يا حبيبي شاعر، تشكّلتَ في رحم الجنون، وكبرتَ في حضن الخيال، تحوكُ من حرير الوهم شالا لكتفيّ وتنقش وجهي فوق الغيم وفوق الماء. ولأن سطور عمرك قبلي بها آلاف الأسماء لآلاف النساء وليس فيها كلمة حب واحدة، ولأن الحب أحلى قدر وأروع ما يمكن أن يحدث لنا، يجعلنا أبرياء كالأطفال وسذجا كالأطفال، نتزحلق فوق قوس قزح، ونخبئ تحت وساداتنا النجومَ والقمر.

لأجل كل هذا، أقتلني اليوم حبًا.

لأن يوما سيأتي تصير فيه الجذوة رمادا، تجفّ المشاعر كإسفنجه تحت الشمس، وتنكمش في ركن بعيد من الذاكرة.

يوما، ستمر بقربي يا حبيبي فلا يشهقُ القلب ولا ترتعشُ الأجفان ولا تحترقُ الدماء ولا تتلعثمُ الحروف.

قد تقول «أهلاً» أو أقول «صباحُ الخير» أو لا نقول شيئا. قد تنظر إليّ بعيون فارغة أو لا تنظر، ثم تضيع وسط الزّحام، وأحاول اقتفاء مرورك...خطواتك...أنفاسك...رائحتك...ظلّك...قبلاتك ولا أجد لحبنا أدنى أثر.

لأن يوما سيأتي تنسى فيه أنّي أدعى «حبيبتي» ويصير لي عندك اسم آخر.. تسميني ..ماضيك أو جنونك أو تلك التي كانت وتقع يدك صدفة على صورة لي أو رسالة أو وردة محنطة داخل كتاب قرأناه معا، فيطوف بشفتيك ظل ابتسامة، بلهاء أو ساخرة أو مشفقة.

ولأني امرأة لا تعرف كيف تحب برفق.. أو بهدوء...أو في صمت.

الحب الهادئ لا يستهويني. لا يقنعني، لا يرضيني، لا يشبع حواسّي ولا أحاسيسي.

لأجل كل هذا....أقتلني اليوم حبا.

لأنني يا شاعري أوقن بأنّ الحب طائر مهاجر لا تستهويه الأقفاص ولو من ذهب ويحنّ دوما إلى الرحيل والتحليق صوب جزر أخرى، لأجل هذا أقبل طواعية أن تقتلني الآن حبا.

كانت الصورة تشير إلى الجنون والنصف.

❖- **الصورة الرابعة:**

راحلة أنا....راجعة إلى مملكتي لأتربع على عرش الأحزان من جديد.

ذلك اليوم....هل تذكر؟ خيّل إلي أن طيور الفرح تحلّق في سماء أحزاني، أصابتني الدهشة، استغربت. هل تذكّرني الفرح أخيرا؟ هل قرر أن يفتح لي نافذة ولو صغيرة أطلّ منها على عوالم الحب ومواسم البهجة؟

يومها نزلت من على عرشي . غافلت جميع الحراس. رميت تاجي وصولجاني وتبعت تلك الطيور المضيئة الملوّنة. ركضت وراءها حافية القدمين. عيناي معلّقة بها وفجأة وجدتني فوق أرض أديمها أشواك، سماؤها تمطر الدموع، رائحة الخوف تملأ الأجواء من حولي.

يا لسذاجتي، يا لغبائي كيف نسيت أنني والحزن تربطنا اتفاقية أبدية؟ إمبراطورة كل الأحزان أنا والوريثة الوحيدة

راحلة أنا، وداعا ولا تقل شيئا.

«آسف حبيبتي....لن أنساك....أتمني لك السعادة» كلمات جوفاء، باردة، شاحبة، بلا طعم، بلا معنى لا أريد سماعها، فقط لا تقل شيئا.دع الصمت يتكلم.

ما أتفه الكلمات أمام بلاغة الصمت.

كانت الصورة تشير إلى تمام الحزن ودمعتين.

❖- الصورة الخامسة:

لا بأس فإنّ الفجيعة لا تأتينا إلا ممّن نحب فقط أتساءل.... لماذا عندما يُغتال الحلم الورديّ في قلب الأنثى

obeikan.com

تكون وراء ذلك يدُ رجل؟ وعندما تدنّس البراءة وتُغتصب الطفولة النائمة في أعماق الأنثى تكون هناك أثار رجل؟ لماذا نكتشف دوما بصمة الرجل فوق رداء هزائمنا وعلى وشاح انكساراتنا؟ لماذا كلما نراجع دفتر الأحزان يكون أسفل كل صفحة توقيع رجل؟ وكلما نفتح أبواب الألم في حياتنا نجد على الأرض والجدران وفي الهواء أشياء رجل: قفازات... جريدة.. أعقاب خديعة.. أو قارورة غدر؟

لماذا..؟ وكل رجل تحمله حواء على أكف الوجع إلى بيادر الفرحة يجرّها هو من شعرها معصوبة العينين إلى المقصلة...؟

وتقول «وددتُ لو أقضمك كتفاحة»؟! أوَ لم تكْفك تفاحة قضمتها قبلا فأخرجتنا بها جميعا من الفردوس؟ ثم شَرقت بها فاحتبست في حلقك بارزة، شاهدة أبد الدهر على جشعك وعصيانك؟

يحزنني أنّك وأنا لم نر الحب من نفس الزاوية...أنا رأيت الحب شريعة، فلسفة حياة، قضيةً ومصيرا... رأيته وصمةً، وشمًا، بصمةً وهوية، ورأيته أنتَ محض تدريب لأعضاء الجسد.

عقارب الصورة تعلن تمام الخيبة.

❖ الصورة السادسة:

ولم تظهر الصورة!.

obeikan.com

البلدة التي ضيّعت الفرح

طلع فجر يوم آخر، وهم هناك، منتشرون، عند النهر، بعضهم يفترش العشب وبعضهم يقف منتصبا محدّقا ببصره نحو الأفق. كانوا ينتظرون بفارغ الصبر وعميق الأمل وبحزن كثيف، قادما من الضفة الأخرى يحمل إليهم الفرح الضائع.

كلهم كبار في السن، نساء ورجال، أصغرهم تجاوز العشرين بقليل.. شعثا غبرا، تبدو عليهم علامات الإرهاق وسيماء القلق.

قال أحدهم وهو يمسّد جبينه بأنامله: ماذا يحدث؟ أتذكّر صورا هلامية غائرة في البعد وفي رأسي ما يشبه الحلم الباهت بأننا كنا أطفالا أو كان بيننا أطفال. لكن لا شيء من ذلك في الذاكرة. لا شيء أبدا.

قال رجل من الحضور: ما معنى أطفال؟

وتساءل آخر بذهول: ما معنى ذاكرة؟

وقالت امرأة باكية: لا أدري ماذا أصابني. لا أذكر شيئا لكني أشعر كأنما أحدا مزّق كبدي نصفين.

«كانوا هنا» قال آخر، وهو يقطّب جبينه ويمسح على وجهه بكف يده العريضة، «ثلاثة أو أربعة في بيتي، أو أكثر، لا أذكر، أحاول التذكّر فلا أستطيع، وكان البيت عامرا بالضجيج والحياة. صحيح كنت قاس معهم، قليلا، أبرحتهم ضربا لأنهم

obeikan.com

لم يجمعوا كفاية من المال في ذلك اليوم أمرتهم فيه بالخروج للتسوّل».

كل شيء كان على ما لا يرام إلى أن أصبح أهل البلدة يوما فإذا بشرخ قد أصاب ذاكرتهم وعائلاتهم. لم يعثروا على طفل واحد ولم يعثروا في جيوب الذاكرة سوى على الركام.

اختفى كل الأطفال من الشوارع والمدارس والمنازل. حزنت الشمس ولم تعد تجد لها سببا للظهور، حزنت الحيوانات الأليفة، العصافير في الأقفاص توقّفت عن الشّدو وأسماك البحر نفقت، الشوارع ارتدت ثوب الصمت والحداد، والأشجار والأزهار في الحدائق أصابها الذهول.

تفرّق أهل البلدة يبحثون. معظمهم لم يكن يدري عما يبحث بالضبط.. «أبحث عن فرح ضائع» كان معظمهم يقولون.

وأخيرا، بعد رحلة منهكة من البحث عن الفرح في كل ربوع القرية، شرقها وغربها، شمالها وجنوبها، منازلها ومدارسها، حوانيتها ومؤسساتها، وديانها وسهولها وبينما كبار البلدة قرب النهر يتشاورن، ظهر فجأة من خلف الأشجار أحد الرعاة، وكان غريبا عن البلدة ولم يسبق لأحد أن رآه قبل ذلك اليوم.. أخبرهم الراعي أن لا فائدة ترجى من البحث، وأنّه في الفجر منذ أيام شاهد امرأة جميلة جدا، فارعة الطول، شعرها سنابل قمح أخضر وجبينها كالقمر يرسل نورا يخطف الأبصار.قال أنّه شاهدها تمضي خارج البلدة رفقة الأطفال،

obeikan.com

كانت تعزف لحنا غريبا على آلة غريبة تشبه الكمنجة وتسير باتجاه الجانب الآخر من النهر، وكل أطفال البلدة يتبعونها بسرعة وبفرح.. كانوا يسيرون خلفها وكأنهم مخدّرون أو بهم مسّ من السحر، أكبرهم سنا يحمل أصغرهم، وأقواهم يساعد أضعفهم.

وكان بين أطفال البلدة بائعة الكبريت والطفل الباكي وماسح الأحذية وبائع الخبز وفانكا جوكوف الاسكافي الصغير والطفلة كوزيت...

وقبل أن ينهي الراعي كلامه التفّ الجمع حوله. أمسكوا بخناقه.

- اخبرنا وإلاّ قضينا عليك.. إلى أين مضت بهم؟

- لا أدري. أخبرتكم بما رأيت. لكن ليس عليكم أن تحزنوا أو تقلقوا لفراقهم فهم هناك أفضل بكثير مما كانوا عليه هنا. رأيت ذلك بأم عيني..كلما تقدّموا خطوات خلف المرأة تغيّرت هيئاتهم وبدت عليهم علامات السرور والبهجة والصحة.

قال الراعي ذلك واختفى مسرعا خلف الأشجار.

ومنذئذ والبلدة بلا أطفال، ولو حدث ومررت من هناك سوف تجد أهل البلدة مجتمعين عند النهر، منتشرين فوق العشب، ينتظرون بفارغ الصبر وعميق الأمل وحزن كثيف قادما من الضفة الأخرى يعيد لهم الفرح الضائع.

obeikan.com

أهزوجة الحُبّ والحرية

أينهي؟لم لا تأتي؟هل حصل لها مكروه؟أم أنها رحلت للبحث عن الجزيرة؟

وكيف ترحل دون أن تودّعني؟

أنتظرها منذ ساعة. قلبي يعصره الخوف وقلق أسود يزحف بظلمته فوق روحي. المكان يكفهر.

عيناي على الطريق ..يسارا ..جهة شجرة الصفصاف التي في آخر الشارع..

تعوّدت أن أراها تأتي من هناك ..لعلّها غيّرت الدرب اليوم؟

أشتاقك يا أميرتي المدللة.. يا رسولة الشوق واللهفة،يا أنيسة وحشتي،يا هدية حظي السعيد .. أشتاق غناءك،رفّة جناحك،منقار كالشهي حين تتحدثين..

ليس من عادتها التأخر. لمتخلف موعدا منذ التقينا لأول مرة.. كان صباحا مشرقا مبشرا بكل ألوان الفرح عندما حطّت برقة عند باب القفص ..لكنها ما لبثت أن جفلت وقفزت قفزة إلى الخلف .." معذرة .." قالت " إني جائعة ..رأيت الحَب ولم أر القفص وإنّي آسفة لحالك ." ..شعرت بفرحة عارمة لرؤيتها ..صوتها أشبه بخرير جدول وألوان ريشها تشبه ألواني .لعلنا من نفس القبيلة .. كل العصافير التي أراها تحوم بالمكان لم تكن لتقترب مني ..كأنها تخشى لعنة الأقفاص.

obeikan.com

لذلك حين رأيتها بالقرب استأنس بها قلبي ..طمأنتها وطلبت منها أن تقترب .. " ..الجوع أعمى يا جميلتي " رحت أبوح لها كأنّي حكيم زمانه،وكأني أعرفها منذ البدء .." كنت أسمع أمي تقول هذا،الجوع كافر يعمي البصر.. مثلما حصل معي منذ سنة حين علقت في هذا القفص ..عصفورا طائش أمراهقا مغرورا كنت .. لم أنتبه ..رأيت الحب ولم أر عين قناصي ..فوقعت في الأسر .ليس أقسى على الروح يا صغيرة من أنت دخلا لمصيدة بقدميك وتضع بنفسك الأغلال في عنقك ... لكني قطعت على نفسي وعدا.. أن أخرج من هنا وسأفعل. "

كانت تستمع باهتمام كبير وبدا لي كأنّ حديثي أذهب فزعها وجوعها شعرت بالشفقة نحوها ..اقترحت عليها أن أطعمها بنفسي ..سجّاني غائب وكل أفراد هذه العائلة الارستقراطية التي تستمتع بحبسي وغنائي الحزين خرجوا مع الفجر ..كعادتهم كل نهاية أسبوع .وبقيت وحيدا في القفص،والقفص وحيدا في الشرفة،والشرفة وحيدة .. باردة مثل كل الشرفات المرتفعة عن الأرض أكثر مما يجب..

أحيانا كنت أضحك من سذاجة سجّاني لأنه لا يدرك بأنه لا يختلف عني كثيرا..

هو أيضا سجين في قفص كبير..

رحت أحمل الحَبّ في منقاري ثم أقتر بمن حافة القفص وتقتر بهي من الحافة الخارجية حتى يلامس منقاري منقارها

فأضع الحب في فمها وأطعمها إلى أن اكتفت .شكرتني وأمالت برأسها الجميل قليلا وبدا عليها السرور والارتياح.

ومنذئذ وهي تزورني كل صباح ..في الصحو وفي المطر.. نتقاسم الحَبّ والماء ثم نظلّ معا نتجاذب أطراف الحديث إلى أن يحين موعد رحيلها. كنا نتحدث في أمور شتى .. الحياة والحب والحَبّ والجوع والحرية ..ونناقش فكرة أيّهما أفضل الحرية مع الجوع أو الشبع داخل الأسر؟وحين يعيينا التفلسف ننشد أهزوجتنا التي نظمناها معا:

لولا أنّ لكلٍّ أسلوبه في الحب
لرضيتُ معك بالقليل
لكني لا أرى في الحب حياة
إلا في فضاء الحرية الرحب
ثقي بي.
سنطير من هنا
وسنكون دائما معا
تحت الشمس
وتحت المطر
نغنّي أهزوجة الحُب والحرية..

بحتلها بشذرات من أفكاري المجنونة.. قلت لها بأني أدين لسجاني بفضل عظيم رغم كل شيء فقد علّمني معنى الحرية

obeikan.com

"من السخف أن نسأل حرا عن معنى الحرية ..كنت أقول لها.. وحدها لأسير يستطيع أن يعرّف الحرية ويفسّر معناها ..والحرية يا صغيرتي لا تستمد معناها منها بل من الغاية التي تكون مقرونة بها ، من الهدف الملازم لها ..والحرية لا تعرّف إلا من وراء القضبان ..والآن وقد فهمت معناها الحقيقي فإنني حين أحصل عليها / وأنا مؤمن بذلك كل الإيمان / لن أفلتها أبدا .. سأستمسك بها بقلبي وروحي.

كم كانت عصفورتي تحب حديثي وكم كنت برفقتها أحسب أنّي أحلّق عاليا في السماء ..

أحببت حديثها أيضا ومن أجملما حدّثتني عنه هو جزيرة الكناري .. حدّثتها عنها جدّتها ..ليست محض اسطورة قالتلي. إنها حقيقة موجودة في مكان ما.. جزيرة خضراء ..جبالها عالية،أشجارها باسقة،عشبها ندي طري،جوّها دافئ على الدوام.. لا ينقطع فيها الحَب ولا ينضب الماء ..ليس على ترابها جنس بشر.. لا بيوت ولا أسوار ولا أقفاص ولا مصائد ولا بنادق .. يعيش فيها كل الطيور.. بسلام ومحبة وتكافل ..أشجار الغار وبساتين الدراق وقصب السكر.. " ولماذا نحن هنا إذا؟" سألتها. لأنّ مجموعة من العصافير الشقية الغبية،قالت لي،غامرت يوما بالابتعاد عن الجزيرة فأضاعت طريق الرجوع وهكذا علقت أنت وأنا هنا..

ولم أدر لحظتها هل ألعنت لك العصافير الغبية أم أشكرها لأنها عرّفتني بعصفورتي .. وبمعنى الحرية..

المكان يزداد وحشة واكفهرارا ..والقلق الأسود يتكاثر حولي .. هذه الدقائق في انتظارها بدت لي كعصر جليد يأو سنة ظلامية كاملة ... ولكن يا الهي .. ماذا أرى؟ ..انتظر ! ..أنت!، يا صبي !.. هذه التي في القفص بيدك هي حبيبتي، لا يحق لك .. أنت ..انتظر.. !

كانت تنظر لي بعيونها الجميلة وأنا أضرب القفص بمنقاري وجناحي وأصرخ

لا تفزعي يا عصفورتي الجميلة ولا تحزني ..سأتحرر وأحررك..

ردّدي أهزوجة حبنا وانتظريني.

obeikan.com

الفَهرِس

رواية سعيد المعتوه وظلّه 7
نزفٌ منفرد..................... 12
فصٌّ حُلْمٍ وذابْ..................... 18
مجسم نصفي آخر في المرآة..................... 25
حورية الشعر..................... 32
حيثُ يسكنُ الزمن..................... 39
ونعود إلى الجنة..................... 45
الحب يُسقط كلّ اللآّءات..................... 50
الغرفة رقم 01..................... 55
بلَغَني أيّها الشّعب السّعيد..................... 61
سمكة الاكواريوم السمراء..................... 65
ظلٌّ يخترقُ الضباب..................... 70
الصوت..................... 75
سر الفراشة الحزينة..................... 79
ALBUM..................... 81
البلدة التي ضيّعت الفرح..................... 88
أهزوجة الحب والحرية..................... 91
الفهرس..................... 96

obeikan.com